نميمة على طريق المسجد

بِسمِ الله الرّحمَنِ الرّحِيم

الطبعة الأولى 1442هـ/2021م

ISBN: 978-9931-788-48-5

اسم العمل: نميمة في طريق المسجد

اسم المؤلف: شاهر جوهر.

تصميم الغلاف: أمل كمال البقاعي

لوحة الغلاف:

الناشر: دار النشر الأمير. Maison D'édition El Amir

المدير العام: حياة قاصدي.

صفحة الفايسبوك: الأمير El Amir

رقم هاتف /مكتب فرنسا:98 59 08 50 9 0033

الإيميل: assoelamir@gmail.com

El Amir للنشر والتوزيع

الطباعةوالتوزيع: دار نقطة

المدير العام: رضوان غضبان

الهاتف: 0699102002 / 0471961477

البريد الالكتروني: sub@noptabook.com

الموقع الالكتروني: www.noqtabook.com

جميع حقوق النشر الورقي محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب

EL AMIR
MAISON D'ÉDITION

.book

شاهر جوهر

نميمة على طريق المسجد

مجموعة قصصية

الأدب نوعان: ذاك الذي تنقله جارتي "هندية" لنسوة الحي بأمانة، وذاك الذي افترى قوله الأديب لأصدقائه، أما هذا الكتاب فهو من النوع الثالث، نميمة محكية ومطبوعة على الورق.

نميمة على طريق المسجد

لاك لقمته بملل على درد فمه، تطلّع نحوي بنظرات لا تفسير لها، كأنّه يقول لي: (من الذي دفع لك لِتُجهد بالي اليوم؟)، لهذا قطعت عليه وساوسه وطلبت منه الاستعجال للحاق بالصلاة.

أنهى طعامه ثم قام بلا رغبة بتمشيط شعره الخشن وارتداء لباسه بكسل، كنزة نصف كُمّ وبنطال جينز واسع من نوع CONC، وحذاء REIN رياضي أبيض منفوش بفعل العمل.

غمغم في سرّه حين انطلقنا:

- قال لي والدي قبل أن يموت: "نحن سندخل الجنة بلا حسيب أو رقيب، عذاباتنا ستشفع لنا عند الله".

لم أعقّب على حديثه بحرف، نظر إليّ وقد أخبرتني الشمس المتساقطة على وجهه كيف طبّقت الأيام القاسية حنكيه، وكيف شرّبت الشمس ماء وجنتيه القشيبتين بفعل عمله في جني البطاطا، فبدا أسمراً

حانكاً وقد برزت عظمتي كتفيه الناتئتين وتناثر شعر لم يشذّب على خدّيه، ما جعل من لا يعرفه يقول أنّه في الأربعين لا في الثلاثين من العمر.

مشينا بضع خطوات، صاحت علينا الطفلة "شام" ابنة جارتي "هندية" بشعر منفوش وأسنان مهترئة:

- إلى أين يا كفار؟ للصلاة؟ صلاة الغولة إن شاء الله.

تمالك جاري غيضه، ثم قال بعجز:

- متى ستنتهي الحرب ونترك هذا المخيم اللعين وأعود إلى دياري؟ أنت كل الحق عليك، لما لا تدع كلبتك كوكو تأكل رأس هذه الطفلة ويرتاح المخيم من شرها؟ آه، أستغفر الله، سامحني يا رب، إنّه يومي الأول في المسجد، عليّ أن أتمالك نفسي، سامح روحي، فقط هذه المرة دعني أفرغ ما في قلبي.

بعد قليل عضّ بيده على يدي بخشونة، كانت يداه لا تزالان قويتان، سأل متفاجئاً:

- لحظة؟ أين موتورك؟

- في الخيمة.

- هل تقصد أننا سنذهب للمسجد سيراً على الأقدام؟

- المسجد لا يبعد سوى بضعة أمتار عن هنا وتعجز ساقاك عن حملك إلى هناك، سيضاعف الله أجرنا إن ذهبنا مشياً، كما أن البنزين مقطوع، ألست من هذا العالم؟

- تمزح!

- ألا ترى أنّه لا أحد في المخيم ولا في القرية يركّب موتوره؟ انظر، إنّ الشارع فارغ.

- تمزح!

- قريبا سنشتري حماراً.

- تمزح يا رجل... فوق كل هذا الذّل في هذا المخيم طوال هذه السنوات يأتي انقطاع المحروقات.

أغلق فمه ومضينا في مسيرنا، من البعيد جاء صوت أحدهم يلوّح بيده، توقفنا لانتظاره، سأل صديقي:

- من هذا؟ آ-آ-آ عرفته أليس هذا "عيسى" النازح الجديد الذي طلق زوجته لأنّها رفضت أن تحلب النجوم؟

- لقد وصل، لا داعي للمزاح وإحراجه.

ألقى عيسى التحية، وطوال طريقنا للمسجد حاول صديقي كتم ضحكته.

في المسجد والذي هو عبارة عن خيمتين كبيرتين تمت خياطتهما مع بعضهما البعض، جلس يراقب المُصلين من حضروا لصلاة الجمعة:

- أتعلم، إنها المرة الأولى التي أصلي بها في المسجد، كنت أصلي في مخيم اليرموك في العاصمة حين أشعر بالفقر كي يرزقني الله، إييه أيام حلوة مرت، أتذكر أبو طلال بائع الكتب والكرنيب راشد، وكاكي القرد ومسعود السفروت، وذاك الشقلبان خلف.

صحيح، ألم تصلك منهم أية أخبار؟ لا تريد أن تردّ ها؟ إيه بسيطة...من يراك بهذا الرواق لأول مرة سيقول كم هو فهمان هذا الشب.

سكت مجدداً ثم أخذ يجيل بناظريه المكان، وكمن نفضه تيار كهربائي نقز مدهوشاً:

- انظر، إنّه مدير المخيم المحتال "مدخنة"، إنّ هذا الداعر يصلي أيضاً، منذ متى وهو يعرف الله؟

حوّل عينيه للجهة المقابلة، لكزني بكوع يده مجدداً، ثم وشوشني مندهشاً:

- يا إلهي، إنّه زوج المستذئبة محاسن، هههاي، إنّه يصلي أيضاً، ومن ذاك الذي معه؟ أليس المتمرد أبو أحمد، طردتك محاسن يا مسكين... لحظة، لا تقل شيء سأعرف لوحدي، أليس ذاك الذي يقف عند المحراب وسيرفع الآذان "أبو مليار" زوج رانيا الجنيّة؟ يا ربي، منذ متى عدتم للإسلام يا كفار؟ لما لم تخبروني بذلك من قبل يا خونة... هههاي.

حين صعد الشيخ على المنبر، حاول صديقي قدر الإمكان كظم ضحكته، وحين لم يقدر على ذلك ثنى ركبتيه ودفن وجهه ووأد صهصهته بينهما، وبوجه اختنق من الضحك أطلّ عليّ قائلاً:

- يا ربي، إنّه صاحب المؤخرة ذات الأثداء، ألا زال ذو المؤخرة النافرة هذا يعظكم في المسجد؟ هههاي. كم هو مسكين هذا الشيخ. بالله عليك، ألا يشبه "توغو موري" عم "كونان" الغبي؟ أجبني ألا يشبهه؟ إنّه يشبهه تماماً وأجزم لك أنّه سيكون هو زعيم العصابة في الحلقة الأخيرة.

حاولت كبح فمي عن الضحك، وحين لم أتماهى مع سيله في الكلام، أكمل وحيداً:

- إنّه غبي لو يفعل ما أقوله له سيجني الكثير من المال، لما لا يضع يده بيد أم المحمد المخاوية؟ إنهما ماهران بالدجل والشعوذة.

تلمظ بشفتيه بحركة اعتادها:

- يقولون إنّ القط يأكل عشـاء هذا الشـيخ، هل تصـدق هذا؟ ها؟ إنك تصـدق هذا يا ذا الأنف الطويل، أعلم ذلك، حين نخرج من المسـجد سـتفضح تاريخ هذا الشـيخ أمام أصـدقائك من شـلّة النباتيين في المخيم، أنا أعرفك، لهذا تصمت؛ لأنّك في المسجد الآن...

نظر حوله بحذر لعل أحداً لم يسمعه، ثم أكمل:

- نعم إنّ هذا الشيخ درويش، لكنه يأكل عشاء القط لا العكس.

ثم تدارك أمره وأخذ ينصـت باهتمام حين أخذ الخطيب يتحدث كيف أنّ نزوحنا في هذا المخيم جنوب البلاد قد طال انتظاره، وكذلك تحدث عن الغلاء وعن ضـرورة التكاثف الاجتماعي في أوقات الحصـار، وكيف جعل الله ماءنا غوراً، وذبلت ثمارنا، وهاجر شـبابنا وتضـخمت الأسـعار، لهذا لم يكن بمقدور رفيقي إلا أن يعلّق على هامش كل كلمة يقولها هذا الشيخ، حتى التصق بي أكثر وقال:

- معه حق، هذا الفهمان يقول كلاماً جميلاً. أتعلم، إن الحصار جعل زوجتي تتفنن في طبخ البطاطا، صـينية بطاطا، بطاطا مقلية، بطاطا مهروسة، شوربة بطاطا بالشعيرية، بطاطا باللبن، سلطة بطاطس مهروسة.. بقي أن تصـنع لي زوجتي بطاطا بالباشـاميل وبطاطا بالكاري ويخنة بطاطا...لولا أنّي أعمل في جني البطاطا لما عرف أولادي شـكل حبات البطاطا

أصلاً. الحمد لله على نعمة البطاطا، قبل مدة كسرتُ الميزانية وقررت شراء بطيخة لهم، لينسوا طعم البطاطا قليلاً، حين قمت بذبحها تجمهر الأولاد حولها كمن يشاهد بيضة ديناصور، وانهالوا يأكلون القشر الأخضر ويرمون اللب. إنّهم لا يعرفون كيف يؤكل البطيخ... لماذا تضحك؟ أنا أرى ضحكتك تخرج من عينيك، الأسبوع الفائت قمت بشراء دجاجة مشوية، خلص آن الأوان أن يأكل أولادي اللحم، وحين وضعت الدجاجة أمام أولادي ليباشروا في أكلها جفلوا من أربعتهم خائفين، إنّها المرة الأولى التي يرون فيها حيواناً مذبوحاً ومعذباً على النار أمامهم، ويطلب منهم أحد أن يأكلوه..

قال ذلك بطريقة مضحكة فخرخرت ضحكة لطيفة من طرف أنفه، وعلى إثره شخرت أنا الآخر في ضحكة كبيرة جعلت جميع المصلين ينظرون إلينا في استخفاف.

مقطوع من شجرة

1/ تحت جسر الرئيس

في الرابع من ديسمبر من العام 2019، أُذيع نبأ وفاة أحد باعة الكتب في دمشــق، لم يســتوقفني الخبر كثيراً، ولم أدخل في التفاصــيل، ففي هذه البلاد يموت يومياً العشرات وبأبشع الطرق التي عرفتها الحرب الحديثة.

في المســـاء، نشـــرت إحدى الزميلات في المجلة التي أعمل بها على صفحتها الشخصية في فيسبوك صورة قديمة للبائع جالساً بين أكوام من الكتب المكدّسة حوله، سارعت بالإرسال لها برسالة مستعجلة:

- أليس هذا "الخال أبو طلال - تحت الجسر"؟

- نعم إنّه "أكرم كلثوم"، رحمه الله.

"أكرم كلثوم" المعروف وسـط محبيه من طلبة الجامعة ومثقفي الطبقة الوسطى خلال سنوات العشرية الأولى والثانية من هذا القرن بـ "أبو طلال – تحت الجسر"، "عميم"، "شيخ قراء دمشق"، "ورّاق دمشق" وغيرها من تسـميات المحبة التي لخصـتها النعوت التي اجتاحت مواقع التواصـل الاجتماعي في وقتها، أما أنا فأعرفه بالخال.

لم يكن للذاكرة بدّ من أن تدفعني لتذكر هذا الوجه الستيني الأسمر الجميل، الباسم على الدوام رغم حرارة الشمس الساقطة على هامته طوال النهار لنيل رزقه.

لم يترك دمشق مذ عرفته. لا الحرب ولا الحصار دفعاه ليهجرها كما فعل الملايين من أبناء هذا الشعب المعذّب.

يمكنك الاعتماد على هذا المثقف الحاصـل على شـهادة الصـف السادس في الحصول على عناوين كتب تهمّ حلقة بحثك أو مشروع تخرجك، أو أي مقال صحفي أو بحث علمي.

تعيدني الذاكرة الآن إلى الوراء، إلى ربيع العام 2010، كنت حينها طالباً جامعياً في سـنته الأخيرة، باحثاً عن بعض الكتب على سـياج التكيّة السليمانية في قلب العاصمة حيث كانت بسطته قبل أن ينتقل لبيع الكتب تحت "جسر الرئيس" لاحقاً.

أسند ظهره على سياج التكية، وقد جلس على صندوق خشبي يُرتب بعض الكتب التي كان يخرجها من كيس خيش، اقتربت نحوه:

– مساعدة؟

– المنيحة ما بدها سؤال.

بالفعل، قرفصت قربه وتبادلنا حديث البائع والشاري، ثم سألني:

– لهجتك ريفية.

– أنا من الجولان.

– نازح؟

– أي نعم نازح.

ضحك ثم طبطب على كتفي:

– أهلاً بالخال.

– عَ راسي خال

كلمة (خال) هي كلمة يكررها أبناء الجولان فيما بينهم بكثرة، لربما لأننا جيلٌ يشعر باليتم.

وبينما كنت أفرز الكتب معه سقطت عيناي على أحد الكتب، سحبته من الكيس ثم وضعته على جنب، ثم قلت له:

– سنتفاوض على سعره بعد قليل.

ضحك مرة أخرى، نفث دخان سيجارته وأخذ يحدثني عن معرفته بجغرافية الجولان وتاريخها وأصدقائه الكثر في القنيطرة، وأضاف بحب "وسأضيفك على الأصدقاء الأكثر تفضيلاً".

انتهينا ثم التقط كتاب "طبائع الاستبداد" لـ "عبد الرحمن الكواكبي" الموضوع على جنب ودسّه بين كتبي، وقال:

– هدية المحل.

حاولت أن أعترض، لكنه أصرّ على ذلك، ثم أردف مازحاً:

– لا تقلق، لن يقدر نازح مثلك أن يضحك على أبو طلال، في المرة القادمة سأعوّض ثمنه بكتب أخرى أبيعها لك.

– لن تراني إذاً.

– لن تقدر على ذلك، وهذا وعد.

بالفعل إنّه مثل دمشق، لا أحد يعرفه إلا ويعود إليه.

طوال سنوات معرفتي له وهو يناديني (بالخال)، لا أذكر أنّه ناداني باسمي، فعلاقة الطالب ببائع الكتب هي علاقة خؤولة، لربما لذلك السبب كنت أستدين منه بعض الكتب حين تُعجزني الحياة، كما كان لا يبخل في إعارتي بعض كتبه التي أحتاجها لكتابة حلقة بحث.

ذات يوم استعنت بخبرته وطلبت منه أن يرشح لي أسماء بعض الكتب والمراجع فيما يتعلق بمشروع تخرجي، فكر قليلاً ثم قال:

- سأرسلك إلى الشخص الخبير، وأعتقد أنه سيساعدك، هل تعرف سوق المستعمل؟

- تقصد سوق الحرامية؟

- بالضبط، سأرسلك إلى صديق حرامي هناك.

ثم ضحك فأدركت أنّه يمزح، فأضاف:

- حين تصل السوق اسأل عن الحاج راشد، الكل سيدلك، لكن حاذر من لسانه، أنا نصحتك، أخبره أنّي أرسلتك اليه، أنا متأكد أنه سيفيدك.

حمل كتبه وراح يعلقها على السياج، وقد ثبّت خلف أذنه قلماً، بينما كنت أجلس على نصف بلوكة وظهري للجدار وأتصفح كتاباً:

- لم تقل لي، ماذا ستفعل بعد التخرج؟ لم يبق سوى القليل على ذلك.

- للبلد، هذا ما أنوي فعله، ولا أدري لربما تتغير خططي.

- بالتوفيق، لكن قبل أن تغادر دمشق لا تنسى أن تودّعني.

- وهل أقدر على ألا أفعل؟

استأذنته وهممت بالمغادرة:

- إلى أين العزم؟

- إلى سوق المستعمل، لأني ربما أعود للبلد غداً.

فتح ذراعيه مقلّداً لهجتي المحلية:

– أعطيني حُبّة لكان.

قبّلته على رأسه وقبّلني بحرارة، وحين ابتعدت بضع خطوات صاح بأدب:

– سلامي للجولان يا خال.

كانت تلك آخر كلماته، إذ حالت بيني وبينه الحرب ولم أراه بعدها أبداً.

مقطوع من شجرة

2 / في سوق المستعمل

على بُعد بضع خطوات ترجّلتُ من الحافلة، لتجرني رائحة سمك الباعة الزنخة إلى خردة الحاج راشد، ستيني مشرد، بعنقٍ قصير معوّج قليلاً لجانبه الأيمن. كما مال قوس ظهره ليترك حدبة صغيرة بين كتفيه، ومع مرور الوقت لم تعد أذناه لتسمعان ضجيج المارة وأسئلتهم المكررة، كذلك على العينان المغبشتان وضع نظارة سميكة لتعينه على معرفة مكان كتبه ووجوه زبائنه، كلّ ذلك كان يشفع له بأن يثور كالمجنون على الزبائن في حال لم تعنه قواه على فهم طلباتهم.

في هذا المكان وسط دمشق وفي هذا السوق بالذات لا سلطة تعلو فوق سلطة الحاج راشد، على الأقل حتى امتداد الرصيف الخارجي للسوق، مع مجموعة شبان التفوا حول أنهم من مناطق مختلفة من عشوائيات

العاصمة ومشردي الأرياف السورية الأخرى، لا أعلم متى ومن أسس هذا المكان النتن، لكن ما يعلمه الجميع أنّ هذا المكان والذي لا يحوي سوى المشردين والمعدمين من الفئات الاجتماعية المصنّفة محليّاً بالمسحوقين، هو مصدر انتفاعهم الوحيد وملجأهم من مطاردة الحكومة لبيع الممنوعات سراً.

سمعته ذات مرة يخبر أحدهم عن مكانه عبر هاتفه:

- بعد جسر الثورة، عند مدخل سوق الحرامية بأمتار، حين تصل سيدلّك أنفك على الطريق لا تقلق، فما أن تبلغ رائحة السمك مداها ملء المعاطس فتنتحر الحواس وتضيع هوية الشم لديك، ستجدني مثل سمكة قرش أنتظرك يا ساردين.

أنا أيضاً هناك وبأفكاري المعلّبة كسمكة ساردين مطبوخة أصبحت أتردد لزيارة مكانه هذا كل حين، ليس لحفاوة استقباله أحبذ الجلوس عنده لساعة أو ساعتين، ولا لجلسته الوثيرة على قطعتين من الحجارة الاسمنتية الخشنة في هذا السوق، بل لأنه بائع الكتب الوحيد الذي بات يقبل إعارتي بعض الكتب القديمة والمجلات المهترئة التي لم أكن أجدها عند بائع آخر.

هناك كنت أشعر بآدميتي، فكل شيء كان حقيقي وأصيل، وأي مكان آخر هو ضرب من ضروب الخيال واليوتوبيا. أرصفة متقابلة تقع تحت بناء

قديم وسـط العاصـمة، بلا أبواب، ولا حرّاس ولا رقابة، بسـطات الخردة القديمة تغطي جانبيه المتقابلين، وجوه الباعة غير المؤنسـة والمميزة بندوب صغيرة أو سطوة سكين أو وشم غير مريحة للزائر للمرة الأولى، لكنها إحدى فصـول الطبيعة بالنسـبة للقائمين عليه، فجميعهم أبناء أحياء مليئة بالعنف في عشوائيات العاصمة.

أرضـية السـوق لزقة بمادة الزيت وأوراق الكتب وقطع أشـرطة الكاسيت المهترئة على الدوام، كتب قديمة ومجلات جنسية وأشرطة فيديو، تحف ونحاسـيات، آلات تسـجيل، ألبسـة معاد تدويرها، أحذية وأشـياء قديمة يجمعها شيء واحد مشترك، وهو أنّها مستعملة وغير معروفة المصدر ما يوحي سبب تسمية هذا المكان بسوق المستعمل أو سوق الحرامية.

لكن في المقابل تعرف الحكومة جيداً أن هؤلاء لا يجمعهم بيع قطع الخردة، بقدر ما يخفى كل واحد فيهم خلف ذلك من ممنوعات ومسروقات.

ذات مرة أخذت أبحث بين كتبه الممزقة والغارقة في الخردة عن كتاب لا على التعيين، وأثناء ذلك وبلا قصد انهالت الكتب الهشّة التي راكمها على الرصيف، حمّلق في عيناي بغيظ وقبل أن تفور ملامحه اللينة ركضت إليه وقطعت الطريق على لسانه حتى لا أتعرض للشتم، فلست قاصراً على إدراك طبيعة هكذا ألسن في هذه الأحياء:

- لنعقد اتفاقية يا حاج، لا تصرخ، لا تشتم وممنوع شدّ الشعر.

قلت ذلك لعلي أضع الثلج على نار غضبه، لهذا لم يفاجئني حين انفجر بالشتيمة، فسارعت بالقول:

- أقترح أن أعيد ترتيب كامل بسطتك وتنظيف هذه الخردة، مقابل أن تكفيني شرّك يا رجل.

الكل يدرك أن هذا الخراب هو جمهوريته وأرضه، وهؤلاء مقطّعي الأوصال ممن حوله هم شعبه، وأنّ العنف والبلطجة هو خبز شوارعهم. لهذا رددت هياج دمه بابتسامة خاوية، وباشرت بتنفيذ بنود الاتفاق على الفور وبلا أي تفكير.

خلال هذه اللحظات تحدثنا سويّاً، ورغم أن فورته قد هدأت لكنّ حديثه لم يكن ليخلو من نبرة التهديد، فبدأ بكلمات اختصرت سبب كل هذا النشح وهذا النزف الذي عشناه طوال تلك السنوات القاسية حتى اليوم:

- أترى ذاك الصبي الطيب هناك؟ اسمه كاكي، سكّينة شقّت بطن أبيه؛ لأنه نعث الخردة التي يبيعها دون أن يشتري منها مسماراً واحداً، نحن هكذا دوماً طيبون مع الأقارب.

ليس كاكي من الأشخاص المؤنسين، فوجهه المخرّش يحكي ألف قصة وقصة عن عذابات الإنسان عبر التاريخ، منظره يوحي بالتباكي،

بالسـغب والعجز، ويحكي نتاج ما أفرزته الخسـارات العسـكرية العربية الإسـرائيلية من تشـرد لعائلته من فلسـطين ليبقى أسـير مخيم في عشـوائيات دمشـق، وهذا المكان بالنسـبة له ولرفاقه الكثر هنا مثل ضـميره، منظور طبوغرافي يتغير كيفما كان، لهذا كله ابتسمت بصفراوية وقلت:

- أحلى الناس أنتم.

في هـذه الأثنـاء، عبقـت رائحـة عطرة غلّفـت لوهلـة رائحـة السـمك والزنخ التي تعجّ بالمكان، اقترب شـاب نظيف يرتدي بدلة وربطة عنق وقد التصـقت به فتاة بسـاقان عاريتان جميلتان، وأخذا يبحثان عن بعض الكتب بعينيهما فقط دون أن يلمسا شيء، ثم غادرا المكان بكل لباقة ولطف يندر وجودهما هنا، ما كان ملفتاً لكل من كان في السوق.

انتصب كاكي لرؤيتهما فوق بسطته مثل نسر يحول بينه وبين فريسته حائل، ثم حلّق بين أصـابعه وجعل يتأوه بصـوتٍ مرتفع، يعض على شـفتيه المتورمتين وهو يـدفع بخصـره المسـتـدق في الهواء بحركات بطيئـة للوراء والأمام، ليلتف حوله في ثواني لفيف من صبية السـوق مكررين معه حركاته السّوقية.

ضحك راشـد لفعلهم حتى بان سـقف حلقومه، ثم علّق قائلاً وعيناه تلاحقان الزائران:

- أترى هذا الطنط الذي يجر معه هذه "الشـقفة" وقد أعجبتك سـاقاها وظهرها العاري؟ إنّه مدير منفذية في أحد الأحزاب التي انخرطت حديثاً في صـفوف الجبهة الوطنية التقدمية، أنا أعرفه، إنّهم يشـترون بدلاتهم من تعبنا يا ولد... حتى ساقيها ناعمتين لأنها تشتري شفرات حلاقتها من أموالنا. خذني على قد عقلي، أليست سيقان النسوة عندكم في الريف يمتلكن وبراً كأشواك الصبار بدل الشعر؟ ها؟ لما تخجل، إنّها الحقيقة التي ليس بعدها حقيقة... أنظر هناك طيب، إلى ذاك الشاب، هناك بالقرب من كشك الصحف اليومية، بائع المحروقات الأسمر الهزيل، أين تنظر يا أحول؟ هناك ذاك الشاب الذي يمتلك صحة إبرة المخيط، الذي يزوّد السيارة البيضاء بالوقود، تماماً هو، إنّه من دير الزور استحوذت الحكومة على أرضه بذريعة قوانين التأميم الاشتراكي بعد أن اكتشفت بئر نفط فيها، ومنذ ذاك النهار وهو يتسكع في العاصمة يبيع الوقود تارة، والصحف اليومية تارة أخرى علّه يجد مردود دخل بديل لعائلته بعد أن خسر أرضه. دقّق النظر به جيداً، أنا أعرفه بصماً، إنّه الآن يفكر في سرّه كيف أخذت الحكومة أرضه ليركب أبناء المدينة سيارة، في حين مات أبوه ولم يركب يوماً غير ظهر زوجته وحماره؟

ضحك بغلو ثم نظر إليّ نظرة كأنها بكر، نظرة أول مرة، أمسك حمالتي بنطاله القماش وبات يلعب بهما ثم أكمل على نفس المنوال:

- أنت تشـــبه مســـعود كثيراً، أهو قريبك؟ إنّه من عمرك، كان يتردد للســـوق بكثرة قبل أن ينضـــم إلينا، إنه مثلك ابن فلّاح، هرب من عائلته في الريف لأنه لم يتمكن من الزواج من صـــبية أحبها وأحبته، وتمرد على كل شيء، وحين وصل لم يكن يعرف شيء سوى العمل في الأرض. إنّه الآن يعمل هناك في كشـــك صـــغيرة لبيع أشـــرطة الكاســـيت (ثم أشـــار بإصـــبعه لجهة اليمين) يأتيه الصـــبية والمراهقون من كل مكان لشـــراء الأفلام الإباحية، الحكومة تتغاضـــى عن ذلك عن قصـــد. إنّه يجني من ذلك الكثير من المال، وهو يشـــعر بالعدالة منذ انضـــم إلينا، فقد ارتدى بنطالاً بخصـــر قصـــير، ووضع حلقاً في أذنه، كما وشم اسم حبيبته بأحرف صغيرة على عنقه، ولديه الكثير من الفتيـات، يكفي أنـه لن يكـدّ ويتعـب بعـد الآن في الأرض ليـأكل المترفون في هذه المدينة جهده حتى يشعر بالعدالة.

ســـكت ولم أنتبه أنّه يراقبني وأنا أفكر بمســـعود وأنظر اليه، قال بشيء من ذكاء:

- لما لا تأتي معنا؟ نحن سـعداء في هذه المدينة الفاسـدة، أتعتقد أنّك حين تتخرج ستتحسن حالك؟ لا تتأمل خيراً في هذا العالم.

تثاقل على كاهله، واستدار يغمغم باحثاً بين الخردة:

- أتدري يا ولد، أصبح لي في هذه المهنة خمسون عاماً ولم ألتقي بشاب نظيف القلب مثلك...

حمل من تحت الخردة والأوراق والمجلات المكومة كتاباً مهترئاً وقد أكلت النار جزئه السفلي، أخذ يقلّب وريقاته ببطء:

- اقرأ هنا.

تناولت الكتاب، كانت قصيدة شعرية طويلة، من نمط الشعر الحر، بدأت أقرأها بصوت مسموع، فانفعل كالعادة:

- أهبل، لا أريد أن أسمع الشعر، اقرأ في الهامش.

اسقطت عيناي على الهامش حيث وضعت نجمة على اسم الشاعر:

- راشد إسماعيل خيّاطة، شاعر سوري، من مواليد دمشق ١٩٤٩، محامي وله ديوان شعري بعنوان "مقطوع من شجرة".

انتهيت من القراءة، ثم نظرت إليه، وكمن عرف ما أريد قوله:

- لهذا السبب أمد لك يد العون والمساعدة، حتى لا تكون ك"راشد خيّاطة" هذا العجوز الذي أمامك وقد قضى شبابه في الدراسة بلا نتيجة.

إنها المرة الاولى التي تفتحت عيناي على هذه الشريحة من البشر، كانت دمشق على الدوام ملجأ المشردين والمطرودين والمكسورين من قلوبهم.

كان حديثه مشوقاً. إذ تحدث كثيراً في ذاك اليوم، وهو أول وآخر يوم يتحدث معي فيها بذاك الشكل المفتوح. عدت بذاكرتي للجنوب، إلى قريتي حيث الريف، ثم فكرت للمرة الأولى في حياتي بالتمرد، وتساءلت كيف أنّ العدالة توازن، وكيف لم يخطر بالبال يوماً أننا نحن الفلاحون مثل خبز الشعير مأكولون مذمومون في هذا الوطن، بل مثل عقب سيجارة قديم يمجّنا بتروي أحمق ولا يلائمه في نهاية المسير سوى أن يُدعس على ذيلنا. الغريب في الأمر أنّ على موائد الجميع في العاصمة وكل يوم لا يرون ساعات طوال من التعب وأشعة الشمس الحارقة والجهد المبذول حتى وصلت تلك الخضروات والفواكه التي نزرعها إلى أشداقهم، وفي النهاية لا يلائمهم في شتم الفلاح الفقير سوى وصفه بالقروي والمتخلف. مساكين هم الفلاحين، وناكرون للجميل هم أبناء المدن، لا يعلمون أنهم يسمنون من يدي هذا المتخلف الناحل.

أصبحت أنا وراشد وشلّته تلك وخلال مدة قصيرة من الأصدقاء المقربين. وذات يوم دعاني إلى منزله، أنا أعرف الحارة التي يسكنها في مخيم اليرموك جنوب دمشق، فهي لا تبعد كثيراً عن سوق لوبية، لكن رغم أنّي حفظت عنوان منزله عن ظهر قلب، إلا أني تهت في بعض الأحياء.

على رأس إحدى تلك الحارات، وبينما كنت أبحث في ذاكرتي عن نقطة علّام تذكرني بحارة راشد وقف عدة صبية بالقرب من حائط إحدى

المنازل، حرّكت الريح مصباحاً كهربائياً أعلى رؤوسهم، فتراقصت خيالات ستة أشخاص على مدخل الحارة، صاحت فتاة موبخة ذيك الشبان بكلمات مقذعة، اقترب شاب منها فمسك يدها وسحبها إليه، حين حدث ذلك كنت قاب قوسين منهما أو أدنى، قلت بلا إرادة لذاك الشاب:

- ما يحدث هو عيب يا شباب

ليتني لم أتدخل، ودون أن أدخل في تفاصيل ما جرى، تحلقني الصبية وهمّوا في ضربي، لكنني تمكنت من التملص منهم والاختفاء خلف حاوية في أحد الأحياء المعتمة، وحين اطمأننت للطريق أكملت بحثي عن راشد، وفي سرّي لعنت هذه الأحياء ومعها الحكومة.

أخيراً أنا في المكان الصحيح، صاحت إحدى الفتيات خلفي مستنجدة، لم أرغب في نجدتها، لا أريد الوقوع في مشاكل جديدة، خرج بعض سكان الحارة لتبيان الأمر، فانفجرت الفتاة أمام الجميع بصوت عالٍ تدّعي أني كنت ألحقها، اقتربت لأوضح لها أن في الأمر خطأ، صدمتُ أن تكون تلك الفتاة هي التي حاولت إنقاذها من تحرش بعض الصبيان قبل قليل.

قلت لهم بتوتر بالغ:

- أنا صديق راشد، وأعتقد أنّ في الأمر خطأ.

شـرحت للجميع الأمر، لكن رواية المرأة العربية تبقى أكثر مصـداقية من رواية الرجل في هذه الأحياء، لم يكن للأمر أن ينتهي لولا أنْ تم اسـتدعاء راشد، والذي اعتذر من الجميع وأخرجني سالماً من بين أيديهم.

في منزل راشـد كان كاكي ومسـعود وشـاب ثالث ذو شـعر طويل ومكزبر يدعى خلف يلعبون ورق الشـدة، اسـتقبلني الجميع بحفاوة ومرح، ضـحكنا لساعات متأخرة من الليل حين رويت لهم ما جرى لي في هذه الليلة.

قال راشـد: - من السـنّة التعارف، أعرفك يا رفيق على كاكي ومسـعود، إنّهما معروفان لديك، أما هذا الشـبل (وقد أشـار بيده إلى خلف وقال بلهجة المذيع الساخرة)، رحبوا معنا بالشقلبا-ا-ا-ا-ان.

غمر خلف وجهه بكلتا يديه:

- كرمى لله نادوني باسمي المحبب.

ثم نظر إليّ وهو مائل على المخدة:

- اسـمي روجيه عيد وأخطأ والدي وأسـماني خلف، إن أردت أن نكون أصـدقاء ولم يعجبك الاسـمين السـابقين نادني بالكوميديان، لكن ليس الشقلبان. لقد أثرتم معدتي يا إخوان، ذاهب للحمّام.

أردف راشد: - إنّه فنان كبير، ولديه مسرح هو الأضخم على مستوى شارع لوبية. وللفنانين طقوس وأبرز طقوس صاحبنا أنه يؤمن أن الأفكار النظيفة تأتينا في بيت الخلاء، لهذا السبب لا زال يتبول لا إرادياً.

لم يغضب خلف أبداً من كل الضجة والسخرية التي تعرّض لها، إنهم معتادون على هذا النمط من التعامل.

كان راشد أرملاً ولديه ثلاثة أولاد، اثنان يعملان في الخليج وثالث في قبرص، آخر مرة قاموا بزيارته كانت منذ أربع سنوات، لهذا تجده يمضي لياليه وحيداً، الوسادة هي زوجته، وصبيان الشوارع هؤلاء هم أولاده وأحفاده.

كان منزله جميلاً، كما لو أن امرأة تسكنه، مرتب ونظيف ويوحي بالبساطة، مكون من طابقين، في الطابق الأرضي شقة صغيرة قام بتأجيرها لأحدهم، في حين يسكن هو في شقة في الطابق الثاني. دائماً تراودني رغبة في سؤاله (هل أنت مسرور أن تموت وحيداً وأنت تعيش شعور امرأة عانس) لكنني لن أقوى يوماً على جرحه.

تعرفت في تلك الليلة على أصدقاء جدد، منهم صبح ومعاذ، أخوان مسنّان، كانا طريفين، لو رآهما فيكتور هوغو في شبابه لجزمت أنّهما سيكونان بطلا روايته البؤساء بلا منازع.

يبلغ صبح من العمر أربع وستون عاماً وهو أصغر من معاذ بثلاث سنوات، نحيف وعصبي، ما يجعل الطلب عليه كمُصلح تلفزيونات، وهي صنعته القديمة، قليل جداً. أمضى هو وزوجته وطفله في العراق عشر سنوات، وحين الغزو الأميركي للعراق عام 2003 قتلت قذيفة أميركية عائلته. عاد إلى سوريا صفر اليدين، لم يجد من يحتضنه سوى أخيه معاذ، لا أدري على وجه الدقة من احتضن الآخر واهتم به، فهذا الأخير تركته زوجته وولديه بعد وقوعه من مسافة طابقين أثناء مزاولته لمهنته كنجار في دمشق، حين عاد "صبح" كان "معاذ" في المشفى وقد أصيب بشلل نصفي وفاقداً للنطق كما قد خَفّتَ سمعه. حمله على ظهره وسكنا في غرفة منفردة في منزل راشد في الطابق الأرضي.

من يدخل غرفتهما ينتابه شعور بالرضى عن مصائبه، يستطيع المرء هنا أن يقول بيقين (الحمد لله على نعمة الحياة)، كل شيء هناك كان ميتاً، كما كانت تنتشر من المكان رائحة بول مخرشة. قاما باقتسام الغرفة فيما بينهما، وذلك بعد خلاف على مشاهدة فيلم، حدث ذلك حين كانا يشاهدان فيماً إباحياً، أحدهما يحب الشقراوات والآخر يحب كبيرات السن، فخلص الخلاف في النهاية؛ لأنّ قام كل واحد منهما باقتناء تلفاز خاص به.

يتواسى راشد بهما، فهما يشبهانه، يصعدان إليه كل يوم ويسهران لساعة متأخرة.

حين تعرفت عليهما في تلك الليلة قام صـبح بمنحي سـيجارة كبادرة لعلاقة جديدة، أخبره كاكي أنّي لا أدخن، ثم وجه لي كاكي الحديث في لهجة تنمّ عن احترام:

- هل بقي في هذا العالم أحد لا يدخن ولا يشـرب القهوة، ولم يجرب لو ربع حبة ترامادول واحدة؟ يا رب السـماء، لو سـمعتك أمي لضـربتك بحذائها يا رجل.

كركر الجميع لكلماته، ثم أرغم سـيجارته في فمه ومجّها مجة قوية، ثم نفث الدخان في وجهي وسألني من جديد:

- أتعلم ما هو أجمل من عدم التدخين؟ عدم تناول القهوة وعدم التعاطي يا مثقف؟

- ما هو؟

- التدخين، شرب القهوة، والتعاطي يا أهبل.

أعجبتني فلسـفته الطريفة في الحياة، ضـحك مسـعود أيضـاً وهو مشغول بتوزيع الورق على اللاعبين، ورغم ذلك حبذ مشاركتنا الحديث:

- لا تستغربوا ذلك، أعرف رجلاً مثل هذا الصنف المثقف. أقصد أنه كان لطيف، مهذب وأنيق، لكن لديه شـــاربان مثل شـــاربي مهند، ويمتلك شعراً طويلاً مثل شعر سعيد، لكن أقصر قليلاً.

كان يتحدث وكأنني أعرف مهند وســـعيد، أكاد أحلف أنّ كل من سمعه في تلك الجلسة لا يعرفهما.

أضاف مسعود:

- رآني ذات مرة تحت جســـر الرئيس في الشـــام، قال لي بنظرة خبير (أنت حرام أن تكون هنا) أي يقصـد لابد وأن أكون في الخارج، أي هذه البلاد لا تقدر مواهبي.

قاطعه صبح مازحاً:

- فعلاً حرام أن تكون بيننا، مكانك في الخارج...هناك.

ثم أشار بأصبعه إلى بيت الخلاء.

ضحك الجميع بهستيرية، حتى أنّ راشـد أخذ يسـعل لشـدة ضحكه. ثم سأله صبح بمواساة:

- وما هي مواهبك يا أبو السعود؟

ردّ خلف هازئاً: - صف الكذب أهم مواهبه.

أكمل مسـعود حديثه وهو يحملق في عيناي، كمن يعلم أنّي الوحيد الذي لن أستهزأ بحديثه:

- قال لي ذاك الرجل (أصبح لي قنصلاً في سوريا عشرون عاماً ولم أجد شاباً مثلك). كما تمنى لو أنه في شبابه كان مثلي، أو أن يرزقه الله ولداً يكون مثلي.

صاح عليه راشد وهو شريكه في لعب الورق: - هيا أكمل فت الورق وخلصنا من مواهبك.

سأله صبح بفضول: - هل كان يعمل قنصلاً في سفارة؟

مسعود: نعم.

صبح: لأي بلد؟

مسعود: بلد أجنبي.

صبح: بصدق أريد أن أعرف ما هي مواهبك، وما علاقة حديثك بما كنا نتحدث عنه؟

مسعود: قال لي القنصل هذه البلاد لا تُقدّر قيمة الموهوبين، فمواهبنا تذهب معنا للقبر دون علم، إننا نسميها عادات أو هلوسات أما هؤلاء الأجانب من يحترمون أنفسهم يسمونها مواهب، ليس مثلكم تحطمون

الحجر بسخريتكم، أنا رجل موهوب...نعم أنا موهوب لما تنظرون إليّ هكذا، هل لأنّي أبيع المحروقات وبعض الجرائد تحت الجسر؟ كل العظماء جاؤوا من الأرياف وعملوا في تلك المهن، أقولها بالفم الملآن وبلا فخر (أنا... طفرة...أنا موهوب).

غمغم راشد متذمراً: - يا رب الأكوان، بحق محمد العربي وعيسى المسيح وشعيب وذو الكفل وهود وجميع الأنبياء التي تؤمن بها، أكمل فت الورق لقد آلمني رأسي.

لكن مسعود كان مصراً على مواجهتهم: - أتريدون معرفة مواهبي، ها؟ لن أخبركم، سأجعل فضولكم يقتلكم، لن أخبركم، أقول إني لن أخبركم حتى لو كنتم صامتين، فأنا أعرف أنّكم تريدون معرفة ذلك.

لوى راشد فمه وقال له بانزعاج: - لا تبح لحلمك لأحد، أبصق ثلاثاً على يسارك كي لا يفسد حلمك.

لكن مسعود كرّر سؤاله للجميع: - أتريدون أن تعرفوا بماذا أحلم؟

صرخ الجميع (أبصق ثلاثاً على يسارك كي لا يفسد حلمك، وأكمل لعبك وأغلق فمك).

على الهامش قال خلف مسترسلاً: - من قال أنّ النساء فقط من يكثرن من النق؟ مواهب مسعود مثل مواهب زوجتي حين كانت طفلة، كانت

تحبذ جمع المفاتيح القديمة والقدّاحات الخربة، أما حين تزوجتها فأصبحت موهبتها الأساسية اكتشاف الرقم السّري لهاتفي.

لثم خلف جبينه بيده، ثم قال كمن تذكر شيئا: - أوه لقد نسيت هاتفي في المنزل، يا لهذه الخطيئة، أجدها الآن قد وجدته. كما أنّ عيد زواجنا قد اقترب ولم أفكر بعد كيف سنحتفل.

قال كاكي: - من محاسن الأمية أن أبي لا يعاني تلك الميزة، إلا أنّه إن أراد دخول الحمام يقدم طلباً لها لتوافق، يا لكم من معذبين في الأرض.

تخايل خلف في حديثه، ثم فلسف رأيه: - إن كان والدك خيخة فهذا لا يعني أن الجميع مثله، إنّ زوجتي بيدي مثل العجينة، أحوّلها وأصيّرها كيفما كان.

سأله كاكي: - أتكرهها لهذا الحد؟

- وهل من اللائق أن يحبّ العربي زوجته!

كاكي: - ولما تغير لونك حين تذكرت أنّ هاتفك في المنزل الآن؟ أنا لا أنكر أنّ أمي امرأة قوية، ليت أبي مثلها.

مسعود: - إن كنت تحب الفتيات القويات، لما لا تتزوج ابنة خالتك إذاً؟ فهي قوية مثل سمران ولديها لسان حاد كالشفرة.

سـمران هي فتاة في حي كاكي، كل صـبية الحي يحملون رقم هاتفها، وتتحدث هي مع الكل، أمضى كاكي سنين طويلة يتبعها، تعذب المسكين كثيراً معها، وحين أقدم شاب على خطبتها استوقفها كاكي وسط الشارع بعصبية فقالت له: (أنا راغبة في الحب، أنت صـديقي ولا أقوى على قول أكثر من ذلك. أما هو فشـيء آخر، شـباب، مال، سـلطة ونفوذ، ما هو الحب يا صديقي؟ إنّه كل ذلك).

في هذه اللحظات تذكر كاكي سمران، لهذا ردّ على مسعود بغصّة:

- لا أحبها يا أخي، إنّها سمراء ولا تشبه سمران، الجميع يقولون لي أن ابنة خالتي جميلة ويكفي أنّها تحبني، لكن لا أعرف لما لا تراها عيناي كذلك.

استدار راشد نحوي وسألني كمن يريد إشراكي في حديثهم:

- وما رأيك يا مثقف؟ تستهلك طاقة الشباب في الحديث وأنت ساكت وتكتفي بالتبسم.

ابتسمت وقلت راجياً: - لا تنعتوني بهذا الوصف رجاء، حين تصفونني بمثقف أشعر كأنها شتيمة، إن أردتم أن أكون مرتاحاً عاملوني كما تعاملون الجميع.

راشد: - ليس في مصلحتك ذلك

أنا: - أنا سأقبل.

راشد: - طيب يا جاهل، أخبرنا رأيك بقصة عشق كاكي هذه.

- في مثل حالته، إن أخطأ بصره فليجعل قلبه دليلاً.

سكت الجميع، ثم قلّبت عيونهم وجوه بعضهم البعض فأدركت أنهم لم يعوا ما قلت، سارع راشد بترجمة ما قلته لكاكي بخبرة: - أي أنّه يقصد أن جميع النساء يتساوين في العتمة، وحين تصبح في أحضانك ويبدأ إطلاق النار، لن يفرق معك إن كانت سمراء أم شقراء. كانت تلك فلسفة راشد في الحياة، فلسفتهم جميعاً، حتى رأي الآخرين كان يؤول وفق ما يرغب. إنه رجل يفكر بعقلانية، فواحد زائد واحد في نظره يساوي ليرتان.

أمضيت تلك الليلة هناك، كانت ليلة جميلة جداً، واحدة من أجمل الليالي في حياتي، وقبل أن أغادر استوقفنا خلف: - يا شباب، أنوي إقامة عرض كوميدي على خشبة المسرح الأسبوع الفائت، الجميع مدعو ولا أعذار للتغيب.

مقطوع من شجرة

3 / الكوميديان

غسلت الشمس وجه السماء المدهون بدخان المصانع.

علت المدينة أصوات الباعة، وكشط أبواب المحلات التجارية، وصفير السيارات.

عند الكراج سيدة مسنة تصرخ على سائق السرفيس، يرتفع هدير السباب والشتيمة ليصل السماء. هناك رجل في الخمسين يلبس طقماً أنيقاً، يبتسم للمارة ويراقب حاله وهندامه في انعكاس زجاج السيارات والمحال التجارية.

سائق السرفيس يكرر موسيقاه الصباحية كما كل يوم: (هناك راكب لم يقم بدفع الأجرة)، وكالعادة يرتفع الصراخ بينه وبين راكب متذمر من همومه.

أتدافع مع الركاب للنزول عند مدخل السوق.

موظفو البلدية يكنسون الشوارع بمكاسحهم الطويلة.

قطط الحي تتقاتل أمام محل بائع اللحمة على أمعاء ومعدة ثور.

في مؤخرة سيارة نوع سوزوكي صغيرة يتعلق عاملا باطون بلباس العمل.

فتيات صغيرات في المرحلة الأساسية، يضعن أحمر شفاه يتجهن للمدرسة.

فتيات محجبات جميعهن جامحات، يرتدين بناطيل قصيرة وضيقة.

مؤخرات عربية سمينة وأرداف ممتلئة في كل مكان.

طلاب هاربون من المدرسة.

بسطات صغيرة تحتل الأرصفة.

شاب مُرتب الهندام والشعر، ينحني لينقل كسر خبز يابسة إلى طرف الرصيف كي لا يطأها المارّة.

على مدخل الحارة يقف أمامي ثلاثة شبان بشعر طويل، ارتدوا طاقيات صغيرة وبناطيل قصيرة لها جيوب بارزة على الجانبين، تدلّى من

جيب أحدهم سلسالٌ طويل ربط نهايته بمفتاح حزامه. آخر يلعب بيده بسكين نوع كروندارى، يخرج ولاعة من جيبه ليشعل سيجارة لرفيقه.

- صباح الخير يا شباب، هل "الزيغ زاغ" من هنا؟

أشار أحدهم لي بيده نحو الممر دون أن يتكلم.

حملت نفسي واتجهت الى الممر، يافطة كبيرة عالقة خلف أشرطة الكهرباء المتشابكة كشبكة عنكبوت كتبت بشكل مرتب (مسرح الزيغ زاع يرحب بكم). وكتب أسفل اليافطة بخط صغير (بإدارة الكوميديان: روجيه عيد).

كان عرض اليوم لفتة جميلة من خلف، واحد من أقوى العروض ولربما آخرها، حيث قرر أن يفاجئ زوجته في احتفالية اليوم العالمي للزوجة القصيرة الذي يصادف عيد زواجهما السادس بأن دعاها لحضور عرضه اليوم.

كان المسرح أو النادي الذي أسسه خلف قبل عام مع بعض أصدقائه من محبي الكوميديا عبارة عن منزل قديم، قاموا بإزالة بعض جدرانه الداخلية، وحولوها إلى منصة تطل على قاعة تتسع في أقصاها لاثنان وثلاثون كرسياً. وقد وجدت الفكرة رواجاً كبيراً لدى صبيان الحاج راشد ومدمني الشعلة وكشاشي الحمام في المدينة.

كان اسـمه في البداية (مسـرح المدينة)، لكن بما أن خشـبة المسـرح كانت صـغيرة وضـيقة، وتصـدر حين السـير عليها صـوتاً موحداً مثل (زيك - زاك) وهو أمر اعتاده مرتادوه، ما دفع خلف مع رفاقه ليعيدوا تسميته باسم مسرح (الزيغ زاغ).

خلف الرقيق الذي أطلق على نفسـه اسـم "روجيه عيد" لم يسـعد كثيراً في هذا الاسـم، ولم يجد تفسـيراً مقنعاً حتى الآن يفسـر سـبب موت اسمه هذا قبل ولادته، ففي حيّه في "مخيم اليرموك" يناديه الصبية وكذلك معارفه بالكوميديان، أما في قريته التي يزورها كل بضـعة أشـهر مرة واحدة فيدعونه باسـم الشـقلبان أو البهلوان، ما كان يخلق في روحه الرقيقة حزناً كبيراً اعتاد كيف يخفيه بابتسامة حزينة.

كانت القاعة في ذاك اليوم تغص بالحضـور، وهو أمر تقصـده خلف بعد أن قام بدعوة جميع أصـدقائه بالاسـم كي يضـمن أن يجعل من تلك الليلة عرضاً مناسباً لاحتفالية عيد زواج.

من بين ممن قدموا لحضـور العرض، الشـابة اللعوب "ميرفت"، كان حضـورها مفاجئاً، بل صـادماً لخلف الذي جمعته بها في السـابق قصـة حب كبيرة ومخيبة للآمال، لم يعتد خلف حضـور ميرفت عروضـه الحيّة هنا منذ أطلق مشروعه هذا، لكنها اليوم قدمت مع صديقها الجديد.

كانت ميرفت ولا زالت مثيرة ومغرية، حتى أنها حين تمشي باحثة عن كرسي في الصف الأمامي يتمايل وسطها مثل عارضات الأزياء لإثارة الشبان وفي مقدمتهم خلف. جلست في الصف الأول ثم وضعت ساق فوق ساق، بدت طويلة، رفيعة، وممشوقة القدّ.

خشبة المسرح خالية سوى من كرسي دوّار قديم بلا أذرع وله عجلات، بدا الارتباك واضحاً على خلف وهو ينقّل عيناه بين ميرفت وزوجته، في وقت كان يتفصد جبينه عرقاً.

التقط المايكرفون، دنا بفمه ذو الشفاه الغليظة نحوه:

- تست، تست، ألو، أيسمعني الجميع؟

صاح البعض: - نسمعك.

- رفيق راشد، أتسمعني؟

رفع راشد يده: - أسمعك يا حبيب القلب.

لسعت خلف قشعريرة باردة: - أشعر بالقشعريرة (ثم بربط في شفتيه متقشعراً، كما هرش بيده ساقه)، كما أن بدني نمّل لحضوركم أيها السادة، على سيرة التنميل يراودني سؤال دوماً (هل النملة تنمّل؟) لا عليكم، لم نأتي لاكتشاف السبب اليوم. أودّ قبل البدء أن أشكركم لحضوركم، ويُسعدني القول، إن لم يكن في كلامي ضغينة طبعاً، أن تكون

سـهرتنا على شـرف من جعلتني اتقشـعر لأجلها، الى السـيدة الاولى في هذا المكان، إلى التي نمّـل قلبي حين رآهـا...إلى ...إلى.. إلى-ى-ى-ى زوجتي الحنونـة "منا-ا-ا-ا-ا-ا-ا-ل ".

صفق الجميع وهم يضحكون، إلا ميرفت التي بدا أنها أخذت تتململ بغيرة وانزعاج.

- أتعلمون، بعض الزوجات كالقبر يا أخي، إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، وهذا رأي عام أجمعت عليه شـريعة الرجال فيما بينهم، إذ أنّ أغلب الدراسـات تؤكد أن الزوج يتحول إلى نمّام تلقائياً حين يلتقي برفاقه. واليوم في اليوم العالمي للزوجة القصيرة، أستطيع أن أقول إنّها نعمة، نعمة بحق، خصوصاً في هكذا ظروف معيشية مستعصية. فهي مثلاً حين ترافقك للسـوق بإمكانك أن تجد ألف طريقة للتملص منها، عادي، إذ أن تضـييعها سـهل بحجة الازدحام. وهو فعل يحبذ فعله جميع الرجال ويجدون صـعوبة في فعله مع النسـاء الطويلات اللواتي يصـطدنك على بعد مئة ميل... [ثم حلق بيديه فوق عينيه كمن ينظر في منظار]، هل هناك من يشـاركنا رأيه، أريد رأيكم أنتم ممن اقترنتم بسـيدات طويلات... ها... أنت؟ أرنب لا تقوى على قول الحقيقة خشـية من أن تسـمعك زوجتك، سـأخبركم ميزة أخرى يا جبناء. إنّ الزوجة القصـيرة قادرة على اتخاذ القرارات الصـائبة في أحلك الأوقات وهو أمر أخذته عن تجربة مسـبقة، فحين تجدك تتقاتل

مع جارك مثلاً سـرعان ما تجمع لك الحجارة، إنّها سـريعة في ذلك، كما ترشـدك لطريق الهرب من الشـرطة في حين تبقى هي مكانها وكأنها لا دخل لها بما جرى. تماماً مثل نجمة القطب، لا تبارح مكانها لكنها ترشد السفن.

نظر بمؤخرة عينه نحو ميرفت: - قد لا يعجب الطويلات هذا الأمر، فأنا لا أتحدث من الفضاء، لهذا سأتحدث هنا فقط في ضرب الأمثلة وأنتم قرروا، فعلى الأرض أعرف أصدقاء كثر جربوا النساء القصيرات في زيجاتهم وأنا واحد منهم، إنهم سعداء بالمطلق ويمضون حياة حقيقية كلها مغامرة.

ألقى نظرة رومنسية إلى زوجته التي أخذ الغضب يتسلل إلى وجهها، وراح يرسل لها قبلاته على الهواء. اتجه نحو الكرسي، جلس عليه: - أعرف صديقاً في قرية مجاورة أحب فتاة قصيرة، كان حين يجلس معي لا يتعب وهو يصف لي رقّتها وحنّيتها، فقبل خطبته لها بأسبوع قال لي برومنسية (آه، إنها جنيّتي يا أخي)، أي يقصد حلوة كالجنية، وبالفعل حين تزوج عاملها على أنها جنيّة حتى أصبحت جنيّة عن حق. فآخر مرة رأيته قادراً فيها على الكلام قال لي بشيزوفرينيا، وقد كان منفوش الشعر وبأسنان صفراء، كما وقد تورمت هالة سوداء تحت عينيه (إنها... إنها جنيّة، آ-آ-آ، لقد أخذتني غدر، لقد التصقت بساقي وعضتني من ركبتي. حاولت ركلها للهرب لكنها بقيت ملتصقة بي، كل ذلك لأني قلت لها يا نصف دكة، إنها جنيّة... آ-آ-آ-آ-آه). ثم ضغط على جانبي رأسه وصرخ مثل فتاة قفز في عنّها فأر، وحين هدأ من

رعبته قال كعجوز في التسعين: (الآن عرفت لما حرّمت الشرائع علينا أكل من له ناب أو أظافر يا صديقي، إنّها وحش له أنياب وأظافر). أترون، لولا زوجته القصيرة تلك لما بلغ الحكمة وأصبح فيلسوفاً، ألم أقل إنها نعمة ومؤثرة؟

شعر خلف بالنشوة، وأخذ شيئاً فشيئاً يزداد حماسة ويستعيد ثقته، في حين أنه لم يكن ينتبه لأعصاب زوجته التي أخذت تهز ساقيها تحت الكرسي كالنابض، فكانت عيناه لا تفارقان ميرفت الذي أصبح همه إغاظتها ولربما وبلا وعي إثارة إعجابها:

- إن الزوجة القصيرة براغماتيكية، وهذا رأيته بعيني ولم يحدثني عنه أحد، في سنوات الشباب كنت أرتاد بعض الأحزاب السياسية في دمشق للتجهيز لمشروع تخرجي من الجامعة، كان من بين المحاضرين في الندوة سيدة مثقفة، طوال الندوة وهي تنط خلف الطاولة من مكان لآخر، كانت تخشى أن تجلس على الكرسي فتختفي قامتها المربوعة. وذات مرة قام زوجها بزيارتها، وحين وقفت بقربه بدت بجانبه كحقيبة يد، فأخذت السيدات في المنصة الحزبية تكيل لها السخرية بأسلوب جارح. لهذا جاءت في اليوم التالي وقد خلعت حذائها الزاحف وارتدت كعباً عالياً، كما غيّرت الطاولة بأخرى منخفضة وبكرسي مرتفع.

إنّها أيضا يا سادة محقِقة للأحلام، أعرف يا جماعة صديقاً كانت زوجته لا تبخل في تحقيق ما يشعر به، فذات مرة قام باقتناص الفرصة

أثناء قيام زوجته بزيارة أهلها في الريف، فكتب على فيسبوك في لحظة شاعرية ولا أحد يعلم من الذي كان يقصدها في منشوره، فقد كتب (لا تنظري إلى عينيّ طويلاً، فستدفعين الثمن يا حلوة) ومنذ علمت زوجته بالأمر وهو يدفع الثمن فعلاً.

صفق الحضور له، فأخذته الحماسة أكثر وراح يجرّ كرسيه بمؤخرته وهو جالس عليه: - أخيراً أستطيع القول، إنها واثقة بنفسها وشامخة، فالزوجة القصيرة منذ صغرها وهي تتطاول أمام رفيقاتها على رؤوس أصابعها في مشيتها، وتشدّ عنقها عالياً لتبلغ طول رفيقاتها، حتى قسى عودها وبقي على هذا الحال، ما جعلها على هذا النمط (السيكيوباتي) في الثقة والشموخ حين تسير مع زوجها.

ترك كرسيه وراح يتمختر مثل الديك وهو يقلّد في مشيه كيف تسير الزوجة الشامخة مشدودة الرأس.

من بين الجميع انفجرت ميرفت اللعوب ضاحكة، كانت ضحكاتها عالية ومستفزة، وقفت ثم صفقت وهي تنظر إلى زوجته منال، ثم قالت متقصّدة: - لهذا السبب أنت تحبذ العنق الطويل.

شعرت منال بالإحراج، وفي حركة سريعة اشتبكت الزوجة مع العشيقة السابقة في الأيادي، ولم تهدآ من تنتيف شعر بعضهن

وشـتم بعضـهن إلا حين تدخل جميع الحضـور لفكّهما عن بعضـهما البعض.

ومنذ ذاك اليوم لم يعد خلف إلى خشبته، حمل أشياءه وكتبه وعاد إلى القرية، ليس لأنه يحب أن يستمع لسخرية الأولاد في الحارات وهم يركضون خلفه ليصفوه (بالبهلوان)، إنما لأن زوجته قامت بحرق المسرح وقدمت شكايتها للحكومة في أكثر الأوقات فوضى وحرج للسلطة، وادعت أنّه يناصر المتمردين ويمسّ في هيبة الدولة في نكاته، ومنذ ذاك الحين والمسارح الساخرة تتناقل قصة خلف كإحدى النكات التي تتحدث عن فضل الزوجة القصيرة.

في تلك السنوات، كانت العشوائيات جنوب العاصمة تغص بالفوضى وبالممنوعات والعنف وانتشار المخدرات، وعلى إثر ذلك ومع اندلاع الاحتجاجات في البلاد تمكن المجتمع الاهلي في المدينة من تسليط الضوء على قضايا المدينة، فتلا ذلك تعويم القضية في الصحافة المحلية، وقامت الفئات المتوسطة في المجتمع آنذاك من تشكيل هيئات ومراكز لمكافحة المخدرات، ونشرت دوريات ودراسات وكتبت مقالات مفصلة عن القضية في الصحف.

وأمام تلك الضغوط التي أخذت تأخذ في ربيع العام 2011 شكل التمرد والمظاهرات وكتابة العبارات المناهضة للحكومة على الجدران،

والتي مست هيبة شخصيات كبيرة ومرموقة في المدينة، قامت الحكومة بإطلاق حملةٍ موسعة على مروجي المخدرات في المخيم، لعلهم بذلك يخففون من غضب الشارع، كانت تلك الحملة نهاية لراشد وصبيانه.

كان كاكي أول الضحايا، حيث اقتحمت قوات الشرطة منزله على حين غفلة، نطّ من الشباك إلى سطح المنزل عارياً تماماً كما خلقته أمه، فطاردته الشرطة على الأسطح وبين الأزقة والحارات، وكانت النسوة في الحي تصرخ وتضرب الشرطة بقطع من الحجارة والطوب كي يتمكن كاكي من الهرب، إلا أنّه لم يفلت من قبضتهم.

وفي اليوم التالي، استيقظ السكان وقد تم وضع نقطة تفتيش في الحي للبحث عن مطلوبين من مروجي الممنوعات، وقد كتبوا على أحد جدران الحي "كاكي لدينا الآن. سليم، نظيف ويكاكي".

أما عن البقية فقد تشردوا وانقطعت عني أخبارهم، ولم أعرف ما حل بهم.

ومع ذلك وقعت الحرب كما لم يكن يتوقع أحد وانقسمت البلاد، وعمّ الخراب وانتشرت الفوضى، وبات الجميع يأكلون لحم بعضهم البعض عن جوع وعن شبع. وتحولنا جميعنا إلى نازحين.

وبعد مرور خمس سنوات ونصف من الحرب، وفي مخيم صغير ومكتظ بالنازحين على الحدود السورية الأردنية، كنت أجلس قرب مدفأة

الحطب حين تعكّرت السماء في الخارج بالغيوم، فاندفع مع الريح العاصفة تيار عريض من الصراخ والجلبة داخل المخيم العشوائي الذي التجأت إليه مع والدتي هرباً من الحرب، وذلك بعيد إصدار الحكومة الأردنية قرارها بمنع تدفق لاجئين جدد عبر أراضيها.

خرجتُ لأتحسس مع الجميع سبب كل ذاك الضجيج وتلك الجلبة، فكان لفيف النازحين يحول بيني وبين رؤية ما يجري، شققت طريقي لداخل الجمع بصعوبة، تطاولت على رؤوس أصابعي فوق الأعناق وقد تحلّقتْ حول عجوز أسقطته العاصفة، حين وصلت إليه كان لا زال يفرفر مثل عصفور متعب علقت جناحيه في الطين، يفتح عيناه تارة ويغمضهما، ويفتح فمه مرة أخرى ويغلقه بصعوبة، ممدداً على ظهره في الوحل، وحبات المطر الكبيرة والمتدافعة خلف بعضها البعض تحاول أن تسدّ فمه وتغلق عيناه.

حملوه ولم يعرف أحد سبب سقوطه، أهي العاصفة أم عارض صحي يعاني منه، تماماً كما لم يكن أحد يعلم من أين جاء، فكل يوم يأتي نازح جديد يأوي لهذا المكان منتظراً نهاية الحرب.

صاح مدير المخيم: - أين أولاده؟ أين إخوته زوجته أو أي أحد ممن يخصه يا جماعة، على أحدٍ من خاصته مرافقته للعلاج داخل الأردن.

لم يُجب أحد، سوى أن صوت أحدهم قال بنبرة مكسورة:

- إنّه مقطوع من شجرة.

لا أعرف لما لم أقل للجميع (أنا أعرفه) لم أقل (إنه الحاج راشـــد، صـــاحب العزبة، مالك الخردة في ســـوق المســـتعمل)، لا أدري لما لم يتحرك لساني بالقول (إنه الشجرة، وأنا، بل نحن جميعاً فرع منه).

حاولت قول ذلك، لكني لم أقدر، أثناء ذلك صـــاحت امرأة تحمل طفلتها على خصـــرها (إنه قريبي)، الكل يعلم أنّها لا تخصـــه، لكنه كان جواز سفرها خارج هذا الخراب، عبّارتها لشاطئ الأمان.

هناك أدركت أنّه حين يبحث المرء عن أشـــياء يراها جيدة، مثالية، ورائقة، يظن أنه يضـــيّع وقته في خلط الأوراق. لكن مع هؤلاء كانت البداية، ليس لي فقط، إنها البداية لكل شـــيء، للاحتجاج، للتمرد، ولكل من يرغب بالبحث عن سبب للعبور، إنّها بداية لنا جميعاً أيها الإخوة.

تكنولوجيا معقدة لأناس بسطاء

التعامل مع التكنولوجيا في هذه القرية لم يتغير منذ ثمانينات القرن الماضي، ففي السابق في القرية التي أسكن بها جنوب غرب البلاد كان ينظر للتكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي كما كان يُنظر، قبل سنوات، لزوجة جاري الطيبة (سعدة المحمّرة). حين قدمت للقرية كانت بلا حجاب وترتدي بنطال جينز وتضع نصف إصبع حمرة على وجنتيها، لهذا نالت اسمها ذاك بجدارة، فكان الكل ينظر إليها كما لو كان ينظر إلى مخلوق غريب، حتى أن النسوة في الحي كنَّ يلقينّ السلام عليها بحذر. ومع مرور الوقت بات الجميع يعتادها كأي منتج محلي عادي، حتى أنّ الجلسات النسائية من دونها أصبحت ناقصة، وذلك حين ارتدت حجاباً وتدثرت بلباس سميك وشرعت تحلب بقرة اشتراها لها زوجها كما تفعل باقي النسوة، فأصبحت قرويّة أكثر من سكان القرية.

في الثمانينيات والتسعينيات كان يُنظر للتكنولوجيا التي بدأت تدخل القرية مثل التلفاز، ومن بعده الهاتف نصف الآلي ومن ثم الآلي، كما كان ينظر لـ "سعدة".

أذكر حين دخل التلفاز منزلنا كان ذاك الصندوق الصغير الذي يتكلم اثنا عشرة ساعة بلا تعب ضيفًا ثقيلًا على والدتي، فكانت أينما جلست في الغرفة كان مذيع النشرة الجوية يلاحقها بنظراته. لهذا كانت تحمل نفسها وتغادر الغرفة، وحين لم تتوقف تلك النظرات رفضت متابعة النشرة الجوية لأكثر من خمس سنوات. توفي والدي رحمه الله ولم تتمكن أمي من إخباره أنّ ضيفه "عدنان حمدان" مذيع النشرة الجوية الشهير في التلفزيون السوري كان ضيفاً "سيء الخلق" و "بعينان زائغتان".

في حين كان والدي خلال تلك السنوات لا يُخفي حبه الشديد للمطربة اللبنانية "سميرة توفيق" حين كان يتغزل بها ومن ثم يقوم بغمزها أمام والدتي حين تطل على الشاشة لتغني أغنيتها الشهيرة "أسمر يا حلو"، فكانت حين تفعل ذلك يغيض والدتي بهزّ رأسه طرباً والقول (إنها تخصني بالغناء) ثم يتبع ذلك بغمز المغنية بعينه في التوقيت الذي يعلم أنها ستقوم بإرسال غمزتها المعتادة لمشاهديها أمام الكاميرا.

مرت الأيام، وقبل بضعة سنوات فقط أدركت أمي أن لا "عدنان حمدان" يراها ولا "سميرة توفيق" تغني لوالدي أو تلاطفه كما كانت تعتقد.

ليســت عائلتي العائلة الوحيدة في القرية ممن تركت التكنولوجيا ذكريات لطيفة في حياتهم، ف"أبو صــالح" إمام القرية كان له هو الآخر وقفات دامية معها. كان ما إن صــعد على المنبر حتى حمل لســانه الحاد كالشــفرة وبات يحارب ذاك الصــندوق الذي كان يطلق عليه على الدوام بالأعور الدجال، في النصف الثاني من التسعينيات حثّ أبو صالح الناس في القرية على تحطيم جميع أجهزة التلفزة في القرية لما تنقله من خلاعة وفجور وتغوي المجتمع نحو الضــلالة، وقد جاءت دعوته تلك بعد عدم جدوى مطالبته بمقاطعة المســلســلات البدوية التي تقوم ببثها الإذاعة الرســمية للمملكة الأردنية الهاشــمية؛ لأنّها برأيه تثير مفســدة الفتيات ممن يذهبن لنقل الماء على رؤوسهن من نبع القرية الوحيد، فيقلدنّ تلك الدراما في الحديث مع عابري السبيل. وبالفعل لم يكذّب بعض أتباعه في القرية، ممن يحملون فوق أكتافهم برميل مخلفات لا دماغ، تلك الأفكار فقاموا بتحطيم جميع أجهزة التلفزة في منازلهم ومنازل من يخصونهم.

لكن ومع بداية الألفية الجديدة وشــيئاً فشــيئاً، لم يكن "أبو صــالح" ليتعب من النط أمام وســائل الإعلام المحلية التي كانت تزور القرية كل حين لنقل شــكواه ومشــاكل القرية للحكومة، واليوم يمتلك قناة على اليوتيوب وصفحة على الفيسبوك وحساب على تويتر.

قبل بضعة أيام كنت متوجهاً للصلاة في المسجد، وعلى جانب الطريق انحدرت والدة الشيخ أبو صالح الداية "هنيّة"، محدودبة، وهزيلة تجمع عيدان الحطب وأوراق شجر الكينا اليابسة، لا زالت على قوتها رغم السنوات العشر بعد المئة التي صرفتها من عمرها. حين رأيتها تذكرت أنّ لكل قاعدة استثناء، وأعتقد أنّ هذه العجوز الجميلة هي الاستثناء الوحيد في القرية. تعتبر "هنيّة" المعمرة الأكبر في القرية سابقاً وفي هذا المخيم الذي نزحنا اليه من الحرب، فهي القابلة الوحيدة التي قامت بتوليد كل جيل الثمانينيات والتسعينات في الحي الذي أعيش فيه، كانت حين يرن الهاتف ولا يوجد أحد في المنزل تركض في الحارة وتصرخ طالبة النجدة ليجيبه. إنّها الوحيدة التي لم تعتد التكنولوجيا ولا زالت على طبيعتها تلك حتى اليوم، فأحفادها باتوا يتخذون عدم ارتياحها ذاك من التكنولوجيا نوع من التسلية واللهو، وأعتقد أنه أمرٌ لم يكن ليزعجها.

الجميع هنا كان يتعامل مع كل ما تراه عيناه خلف تلك الشاشة أنه حقيقة مطلقة وليس تمثيل، فبعض العائلات قامت ببيع أجهزة التلفزة فقط لأنها شاهدت البطل يموت أكثر من مرة في أكثر من مسلسل، فكان أن اعتبروا ذلك خديعة ومداهنة وغش، وهم أناسٌ لا يحبذون أن يخدعهم أحد حتى ولو بالتمثيل.

سـبب ذلك أنهم عاطفيون جداً، وفي هذا دعوني أحدثكم عن أبو فهد، فهو لا يختلف عن باقي سـكان القرية بشـيء سـوى أنه يخفي خلف وجهه القاسـي والمتحجر قلباً رحيماً، فذات مرة حمل عقاله ومن ثم عصـاه التي يهش بها غنمه وقام بتحطيم التلفاز بعد أن لم يعجبه ما قام به بطل المسـلسـل من خيانة لصـديقه، بدوية أبو فهد رأت أنه من المعيب ألا يفعل شيء حيال رجل مخدوع.

عانى التلفاز في قريتي ما عانته الشـعوب العربية طوال عقود، من البصق والرمي بالأحذية والبكاء والطلاق والتحطيم.

أما اليوم ليس الحال بأحسـن من البارحة، فبسـاطة القرى يتم توارثها كما لو بالرضـاعة. قبل أيام قام شـاب في الحي بإنشـاء حسـابه الأول عبر فيسـبوك، وحين سـأله فيسـبوك (بماذا تفكر؟) كإجراء معتاد للبدء في مباشـرة اليوميات، كتب بعفوية (أفكر في هيفا وهبي)، ولم يكتفي في هذا بل قام بإنشـاء حسـاب لزوجته، وراحا يتبادلان رسـائلهما الخاصـة على صـفحة اليوميات العامة، ومنذ أيام وحتى الآن أصـبح المسـكينان حديث السـوشـال ميديا و (المضافات ميديا) المنتشرة في كل القرية.

في الأيام الآتية سـيعتاد الجميع الأمر، أنا واثق من ذلك، حتى الأجهزة السـلطوية التي تحارب التكنولوجيا لمسـاعي مختلفة سـتعتادها ذات يوم، فالكل هنا من الأسـفل إلى الأعلى يخاف التكنولوجيا، ولا أحد باسـتطاعته

إنكار ذلك، ومخاوف الجميع هنا مرتبطة بطبيعة متأصلة بتكوين هذه القرية العربية الكبيرة التي نعيش بها. التي لا زال قسمٌ كبير فيها يرى وسائل التواصل الاجتماعي دخيلا غريبا مادام أنه لا يتدثر بلباس العادات والتقاليد؛ لأن السكان هنا أنواع منهم من لازال يعتقد أن النشرة الجوية هي لكشف الخصوصية فآثر الانغلاق على نفسه دون مواجهة مشاكله وفهم الحقيقة، وهناك من لازال ينجرُّ وراء الاستعراضات فيتلقى كل إيحاءات البروباغاندا وغمزاتها، وهناك من هم أكثر بساطة حيث أقصى تفكيرهم هو متابعة الموضة والستايل وأخبار الفنانين، وبيننا أيضاً يعيش من لا زالوا يحملون عقدهم القديمة مع عصيهم ومطارقهم لخوفهم من أي شيء قد تجلبه التكنولوجيا فتنسف عاداتهم، وآخرون كثر لن يتأقلموا أو يتعايشوا يوماً معها.

الكردوم

تماماً كما جاء في الأخبار ليلة أمس، فقد سادت الصقعة جميع الأصقاع في البلاد، تراكمت ندف الثلج فوق الأشجار والمنازل وأخذت تنشر البرودة في كل مكان، وفي الخارج كانت الريح تعوي وتصفق بتتابع على النوافذ والأبواب بعصبية. تتالى على الباب نقر لطيفٌ ومتواتر، وانساب صوت كليل شبه مسموع كانت الريح تضربه ليبتعد عن مسامعنا المصغية لهدير المدفأة. أصبح النقر أقوى، فاندفع صوت أحدهم يزعق: - افتحوا الباب.

فتحت والدتي الباب، تأرجح على الباب شبح صغير يرتجف، مدعوك بالطين ويقطر ماءاً من رأسه إلى قدميه، كشف عن قلنسوته، إنّه "الكردوم" ابن أخي الصغير والمشاغب ذو العشر سنوات، كانت أسنانه تصطكان من البرد، قال مرتجفاً: - جدتي أنا دخيل عليكم، لقد طردني والدي من المنزل.

قال ذلك ثم انفجر باكياً. أدخلته والدتي المنزل، فسارعت تجرها العاطفة وتذكر أبويه بسوء محتمل لطرد هذا الصغير في هذا الجو العاصف، بدّلت له لباسه وجففت شعره ويداه، وضعت له الشاي الساخن ودثّرته بغطاء سميك. وحين أخذت الحرارة والدفء تعيدان لوجهه الحياة، سألته والدتي عن سبب مجيئه في هذا الجو البارد، قال بعصبية: - ألا تسمعين؟ لقد طردني ابنك الحنون.

- وما السبب؟ لولا أنك لم تشاغب لما فعل ذلك.

- أنا! أقسم بآيات الله العظمى المقدسة يا جدتي الحبيبة لم أفعل شيء، قلت له فقط أريد سكاكر ذات الأصبع البلاستيكي، فقال لي في مكوناتها لحم الخنزير، بعد قليل قلت له طيب أريد أن أشتري كيكة الشوكولاتة إنها رخيصة ولذيذة، فقال لي إن كريمة الشكولاتة تؤخذ من دهن الخنزير، ذهبت إلى أمي وقلت لها أريد لحماً من القصّاب، على بالي آكل لحم، فقالت لي إنّ في لحم الخروف شحم خنزير وهو محرم أكله. في تلك الأثناء صاح والدي وطلب مني أن أحضر له كأس ماء ليشرب، أحضرت له كأس ماء وحين مددته إليه ليأخذه مني قال أعطه لأخيك "حمادة" لا أريد أن أشرب، هنا صحت في وجهه وقلت له لست خادماً لأخي الصغير، ثم عطستُ أمامه، ألا يعطس الإنسان العادي يا أعمامي؟ هنا غضب والدي ولحقني في كل أرجاء المنزل، ظن والدي أني قمت بالبصق في كأس الماء عمداً، حملني من

تكة سـروالي ومن ياقة قميصـي وقذفني خارج المنزل، وقال لي أنا متبرئ منك ليوم الدين، ماذا يعني ذلك يا جدتي؟

- يعني أنه لم يعد والدك...

غمغم: - أحسن.

- وهل بصقت في الكأس فعلاً؟

- لا أعوذ بالله، لقد عطست "تسأ" هكذا، عطسة صغيرة، "تسأ".

دخل أخي الأوسـط المنزل، يحمل بيده ربطتي خبز قام بشـرائهما من الـدكان: - أهلاً أهلاً بـالضـيف، يـا أهلاً بـالكردوم، مـاذا لـديك اليوم من متاعب؟ كيف جئت بهذا الجو البارد كل هذه المسافة، هل جئت مع والدك؟

- لقد جئت لوحدي سيراً على الأقدام.

- وما سبب زيارتك الكريمة في هذا الجو الحلو إذاً؟

قرص كتفيه ببراءة مصطنعة:

- لقد طردني أبي يا عمي.

- وبماذا أزعجته حتى يفعل ذلك؟

- لم أفعل شـيء، كل ما هنالك أنّي طلبت منه سـكاكر ذات الاصـبع البلاسـتيكي، فقال لي في مكوناتها لحم الخنزير، قلت له أريد أن أشـتري كيكة

الشوكولاتة إذ أنها رخيصة ولذيذة، فقال لي إن كريمة الشوكولاتة تؤخذ من دهن الخنزير، ذهبت إلى أمي وقلت لها أريد لحماً من القصّاب، على بالي آكل لحم، فقالت لي إنّ في لحم الخروف لدى "عبد الرؤوف" القصّاب شحم خنزير وهو محرم أكله. عمي هل لحم الخروف لدى عبد الرؤوف فيه شحم خنزير؟

- آ-آ، يحدث أن يكون كذلك، أكمل...

- في تلك الأثناء صاح والدي عليّ وطلب مني أن أحضر له كأس ماء ليشرب، لقد خدعني قال إنه يريد ماء ليشرب هو بنفسه، أحضرت له كأس ماء وحين مددته إليه ليأخذه مني قال أعطه لأخيك "حمادة" لا أريد أن أشرب، هنا صحت في وجهه وقلت له لست خادماً لحمادة، فتظاهرت أني أبصق في الكأس أمامه كي أغيظه، هنا غضب والدي ولحقني ثم حملني من تكة سروالي ومن ياقة قميصي وقذفني في الماء، وقال لي: "أنا متبرئ منك"، يعني أنّه لم يعد والدي.

صبّت له جدته كأس شاي ساخن آخر، قرّبته منه، أخذ رشفة. ثم سألته وهي تخفي ابتسامة كبيرة على وجهها: - كيف هي دراستك؟

- جيدة

- يقول رفاقك أنك الأكسل في الصف.

ارتشـف رشـفة من الشـاي، ثم ألصـق كسـرة خبز على المدفأة وردّ بهدوء وبلا أي اكتراث:

- يكذبون، إني من الأوائل في المدرسـة، اسـألي مسـتخدم المدرسـة إن لم تصدقي.

- وما أدراه المستخدم بمستواك التعليمي؟

- إنّه صديقي ولن يقول كلاماً سيئاً بحقي.

- يعني نستطيع القول إنك في الترتيب الأول على الصف؟

- بل تحت الأول بقليل، أنا لا أحب الكذب يا جدتي.

- بائن. ومن هو أكسل الصف؟

دكّ كسرة خبز كبيرة في فمه:

- إنّه صـديقي مهند... زعبور، أتعرفينه؟ ذاك الصـبي الذي رأيتني ألعب معه حين جئت لمنزلنا الأسـبوع الماضـي، من المسـتحيل ألا تعرفيه، زعبور، تذكري، صـدره ناهض للأعلى مثل الفتيات، ومؤخرته نافرة للوراء، إنه يجلس معي بنفس المقعد.

تنهدت والدتي: - سُـــئِل البعير:"ما هي صـــنعتك أيها البعير؟ فأجاب: أعمل في تصـــليح الســـاعات، فقالوا له بائن على خفّيك"، وأنت بائن على عينيك وعلى صديقك زعبور أنك الأول على الصف.

- قلت لك يا جدتي الحنونة: "لست الأول، إنما تحت الأول بقليل".

ثم تابع في هرش الخبز المحمّص وشرب الشاي.

أثناء جلستنا اتصل أخي من ألمانيا، تحدث مطوّلاً بالصوت والصورة مع والدتي: - أليس هذا الصغير الذي بقربك الكردوم؟

- نعم، إنه لاجئ لدينا اليوم.

- كيف حالك أيها المشاغب؟

ردّ الصغير بتظلّم:

- من الله بألف خير، لكن من أخيك الكبير لست بخير.

- ماذا فعل لتقول ذلك؟

- ألم تسمع ما فعله بي؟

- لا، لم يصلني الخبر بعد.

- لقد طردني أخوك الكبير وتبرأ منّي.

- لو لم ترتكب أذيّة لما فعل ذلك.

- أقسم بآيات الله العظمى المقدسات المباركات أنّي لم أفعل له شيء، القصة بدأت حين طلبت من أخيك الكبير سكاكر ذات الاصبع البلاستيكي فأنا أحبها، فقال لي إن في مكوناتها لحم الخنزير، قلت له فليكن فمكونات الخنزير محرمة، فأنا مؤدب ولا أنق، ولا أتناول ما حرم الله، فقلت بدل ذلك أريد أن أشتري كيكة الشوكولاتة، إنها رخيصة ولذيذة، فقال لي إن كريمة الشوكولاتة تؤخذ من دهن الخنزير، قلت أيضاً معليش فدهن الخنزير محرم. ذهبتُ إلى أمي وقلت لها أريد لحماً من القصّاب، على بالي آكل لحم. ألا يشتهي المرء لحماً من عند القصّاب؟ فقالت لي إنّ في لحم الخروف لدى القصّاب شحم خنزير وهو محرم أكله. أنا هنا غضبت، لكني لم أفعل شيء، أنا مؤدب وأنت تعرفني يا عمي في ألمانيا، وبعد قليل في تلك الأثناء صاح والدي عليّ وطلب مني أن أحضر له كأس ماء ليشرب، لقد غشني قال إنه يريد ماء له هو لا لأحد غيره، أحضرت له كأس ماء وحين مددته إليه ليأخذه مني قال أعطه لأخيك "حمادة" لا أريد أن أشرب، هل أنا مَضحكةٌ الجميع حتى يفعل بي ذلك؟ كان "حمادة" يضع رجلاً فوق أخرى، وقال لي بعجرفة: "ناولني الماء يا خادم" دون أن يرفع ظهره عن الأرض ليأخذ مني الماء حتى، هنا صحت في وجهه وقلت له لست خادماً لأحد، فقمت بالبصق خارج الكأس أمامه، قلت تء .. تء، أنظر يا عمي في ألمانيا إلى طرف لساني، قلت هكذا

برأس لساني تؤ.. تء خارج الكأس، فغضب أخيك مني ثم حملني من تكة سروالي ومن ياقة قميصي وقذفني خارج المنزل والجو زمهرير، وقال لي أنا متبرئ منك، يعني أنه لم يعد والدي.

ضحك أخي لكلامه، ثم قال له: - سأخبر والدك أن يرضى عنك، لا تقلق، وسأرسل له بعض المال لتشتري لحم خروف ليس فيه شحم خنزير.

- لم يعد الأمر مهماً، لا تأخذ ببالك، فأنا لدي كرامة وهي عزيزة عليّ.

أغلق أخي الهاتف، أشعل أخي الأوسط قرب المدفأة سيجارة، ثم تفحصت عيناه المكان بحثاً عن كأس فارغة ليشرب الشاي، وحين لم يجد طلب من الصغير أن يحضر له كأساً فارغة من المطبخ على اعتبار أن القاعدة الأولى في المنزل تقول "صغير القوم خادمهم". حمل الصغير نفسه بتثاقل وبتكاسل، دك الكأس على الأرض أمام الأبريق بشيء من عدوانية، فطلب منه أخي أن يسكب له الشاي حين كان منشغلاً هو بهاتفه، صبّ الكردوم الشاي في الكأس وحمله إليه، فغمغم متذمراً بصوت واضح للجميع: - يا حبيبي، يريدونني خادماً لهم.

ثم اندفعت عطسة كبيرة مفاجئة ومختلقة ملأت كأس الشاي والمكان.

نهض أخي بهدوء، ودون أن يتلفظ بحرف، أمسكه من تكة سرواله وبيده الأخرى من ياقة قميصه وجدفه خارج المنزل: - اذهب إلى أخوالك فنحن أبرياء منك.

صاح الصغير خلف الباب: - إنها عطسة صغيرة يا عمي الحبيب، كل ما قلته هو تسأ... تسأ، أنظر إلى طرف لساني يا عمي اللئيم، أنظر، تسأ... تسأ. أنت طلبت كأس شاي فارغة وأنا وضعتها على الأرض، ثم طلبت أنت أن أسكب لك الشاي، وحين حملتها عطست عطسة صغيرة، هكذا تسأ، افتح الباب وأنظر كيف، هكذا تسأ ورغم ذلك فقد أشحت بوجهي بعيدا عن الكأس وخنقت العطسة بِكُمّ يدي.

"الزمن الجميل" و "صاحب السكسوكة"

حين وصلت إلى مركز الهلال الأحمر لاستلام حصتي من برنامج الغذاء العالمي، كان الازدحام على ذروته، غرفة الانتظار تعج بالمستفيدين. وحين تعبت من الوقوف والانتظار حككت مؤخرتي في كرسي فارغ قرب شابين في العشرينيات. عَقد الأول شماخاً على رأسه وجبينه، وترك ذؤابته متدليّة من الخلف مثل ذيل جرو صغير، كما كان يربي سكسوكة صغيرة عند مَجمَع لحييه. أما الثاني فكان يشبه جيل الخمسينيات في العراق حيث الزمن الجميل، شعر منفوش يغطي شحمتي أذنيه، وشاربان كبيران ولحية حليقة، وصدغان ناتئان لوجه أسمر.

كانا يرغمان لسانيهما فيما بينهما ويتجادلان في حديث طويل، إنهما طريفين جداً، لا تعرف مزحهما من جِدهما، قال صاحب السكسوكة كمن يكمل حديثاً غاب عنّي قسم كبير منه: - أي شخص يمنح اهتماماً يفوق قيمة الآخر يتحول إلى شخص تافه بلا قيمة، أنظر كيف يتدافعون ويكيلون

المديح والتملق للموظف كي يستلموا حصتهم قبل غيرهم، يا لهم من أناس بلا كرامة.

رد عليه صاحبه "الزمن الجميل"، وكان يسحب على سيجارته مهموماً: - شعب عربي لن يتغير. القانون بالنسبة لهم مجرد زوجة أب قاسية لن يحبوها يوماً، أريد أن أفهم لما حين يخرج المرء من بيئته يصبح إنساناً محترماً؟ كل الذين هاجروا إلى أوروبا يتملقون على الفيسبوك بعبور الشارع بانتظام وبرمي القمامة في الحاوية، وبفعل الخير، وينبذون العنف، لِما لم يكونوا يفعلون ذلك هنا حينما كانوا بيننا؟ يعني هؤلاء الذين يتدافعون على الدور لو ذهبوا إلى أوروبا لوجدتهم يؤثِرون غيرهم على مصلحتهم، أما هنا فالأمر بعيد عما نفكر به. أُنظر كيف يتدافع ذاك العجوز، إنه على حافة قبره، أنا أعرفه إن كان بإمكانه أن يجعلك تمشي على المال من هنا إلى العاصمة، ولديه أربعمائة رأس ماشية ويتقاتل لأجل سلة بثلاثين ألف ليرة، كم أنت كرنيب أيها العجوز.

ضحك "صاحب السكسوكة"، في الوقت الذي ارتفع فيه في القرية صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر، أقفل ضحكته ثم قال بخشوع: - دعنا ألا نتحدث عنهم بسوء، قد يمسخنا الله ويحولنا إلى ضفادع وحلزونات.

حكّ " الزمن الجميل" أرنبة أنفه بخيال صاخب: - لك أن تتخيل إن حدث ذلك وتحولنا إلى ضفدعين، كيف سأقنع أهلي أني ابنهم؟

قال صـــاحبه بتمعن: - نكتب لهم ورقة نقول فيها نحن أولادكم يا هووو، لقد مُسخنا لضفدعين.

- وهل تعرف الضفادع الكتابة؟

- طيب نحدثهم؟

- البشــر لا يفهمون لغة الضــفادع، إن أهلك لا يفهمون لغة البشــر بالأصل.

تملّكت الحماسـة "صـاحب السـكسـوكة": - أقول لزوجتي "نيق بيق، نيق بيق" وستفهم.

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني هذا أنا زوجك يا بنت المدوّد، لزوجتي لغة خاصـة ومعتادة على النق فوق رأسي كضفدع.

انفجر كلاهما من الضـحك، فأردف " الزمن الجميل": - أعتقد أنها إن علمت بذلك ستلتهمك، فبعض الشعوب يفضلون أكل الضفادع، أعرف عائلة هنا بسبب المجاعة طبقها المفضل فخذ الضفدع المشوي، أقسم على ذلك.

- من هي العائلة؟ بالله عليك قل لي، أليست عائلة سـفيان؟ إنهم مثل الضفادع النقاقة.

- لا تتحدث بسوء وإلا سيمسخنا الله.

شهق "الزمن الجميل" باسترسال وقد دمعت عيناه من الضحك، ثم أكمل: - رأيت ذات مرة ديكنا وقد اصطاد ضفدعاً، ليتك تعلم ما فعله به، لقد نقره حيّاً حتى اندلقت مصرانه، لم يمت، بقي المسكين يجر مصرانه محاولاً الهرب والنجاة، إنّ الروح غالية يا أخي، ثم التفّت حوله الدجاجات وتدافعن في التهامه.

- يا لها من ميتة وسخة، لكن لو لم يكن ذاك الضفدع وسخاً في حياته لما وقع له ما وقع. لا تتحدث أكثر فقد أصبت بالغثيان، الأحلى يا صاحبي أن يمسخنا الله إلى حلزونات، يا موعلم سنصل عندها إلى المنزل بعد ألف عام.

- لا تخف، سنتعلق بدولاب دراجة نارية.

- وكيف سنقنعه بالتوقف، الفكرة ليست هنا، بل هي كيف سنخبر ذوينا ليطعمونا؟

- معك حق، لم يخطر ببالي ذلك. أتعلم؟ عادي نعيش حياة الحلزون، العالم مليء بالطعام، قطعة خوخ تكفينا عاماً كاملاً، وسأتعرف أنا على حلزونة شقراء، فالعالم مليء بالحلزونات العزباوات، وسأصنع معها عائلة، وأنجب منها حلازين صغار يشبهونني.

- فكرة، وأنا سأتزوج، لست أحسن مني وسنقيم عرساً جماعياً، فالزواج لدى عشيرة الحلزون ليس مكلفاً لا مهر فيه ولا مقدم ولا مُؤخر، ولا غرفة نوم.

- ولن تقول لك زوجتك "أم حلزون" هات لي سكر ولا زيت، ولن تأمرك بالذهاب والوقوف طوال النهار بانتظار السلة، لن يذلنا شيء.

- وتستطيع الزواج من أكثر من حلزونة حلوة، لكن أريدها حلزونة حورانية، أنا أحب الحلزونات الحورانيات.

- لك مني أحلى حلزونة تخدم سكسوكتك، لكن هل للحلزون...

ثم أخفض "الزمن الجميل" صوته وأغرق فمه يوشوش صديقه كي لا يسمعه أحد، فضحكا حتى ملأ ضحكهما المكان.

في تلك الأثناء قطع حديثهما اللطيف موظف الهلال، فقفزا نحوه مثل ضفدعين شابين، استلما وصل حصتهما وغادرا المكان يتهامسان ويضحكان بخفة وبروح عذبة.

يوم في الريف

حين كانت العائلات - نهاية الاسبوع - في المدينة - تهرب من الزحام والعيش الرتيب والحياة الشاقة المتعبة، كان السكان في الزور يستمتعون بدفء الريف الذي يفتقدونه طوال الأسبوع هناك.

من بين العائلات التي لم تعتد سكنى المدن وقررت الاسترخاء والراحة عائلة خلدون، رجل المبيعات، هذا ما يحبذ أن يطلقه خلدون على عمله بدل القول كموزع للفوط على المنازل، حيث تقدم لمديره في الشركة بإجازة لبضعة أيام، لعله يستعيد نشاطه ومهاراته التي بات يفتقدها في إقناع زبائنه.

في ذاك اليوم الريفي الهادئ، وعلى الطريق المنزلق جنوب المدينة كان خلدون يقود سيارته ببطء نحو "الزور" لينعم كغيره بالهدوء لبعض الوقت. بجانبه زوجته "صَبَاح" تدندن مع الراديو أغنيتها المحببة "كان هواك عاصفاً، ليتني هواك"، في حين كان الكرسي الخلفي يزعج ألحانها، وكان أكثر

حركة وشـغباً، حيث جلس طفلهما المشـاغب "هاني" ذو الأحد عشـرة سـنة ينط من جانب إلى آخر يراقب المكان من نافذتي السيارة.

خلدون عيناه منزرعتان على الطريق، سـألته زوجته في مداهنة كي تكسر حالة جموده: - كثرت خطوط الشيب في رأسك.

رد: - إنها خطوط الجودة.

- ممم، أنت حزين على الهاتف الذي تمت سرقته، أليس كذلك؟

- حزين على الشريحة فقط، إن بها أرقام مهمة.

هوّمت زوجته رأسـها وشـقلبت عيناها بسـخرية: - عبارة السـوريين المتوارثة عبر الأجيال.

- من غير اللائق أن تنعت الزوجة زوجها بالكاذب.

- لم أقل أنّك كاذب، كنت أقصـد أنك تثبت أنك سـوري أصـيل. لكم أتعبت الصادقين من بعدك يا زوجي الحبيب.

- تصـلحين لتكوني مندوبة مبيعات فأنتِ تجيدين التسـويق، لتكوني مندوبـة مبيعـات في المسـتقبل، فقط عليكِ أن تتحلي بـالعزيمـة والإقنـاع والأمـان والمخـاطرة والثقـة والعلاقـات والصـداقـة والسـمعـة والتخطيط والتحفيز و...

- على مهلك، كل هذا كي أبيع فوطة؟ هناك بعض السلع لا تحتاج إلى تسويق ولا إلى مهارة، إنها حسب الرغبة مثل الملح، وبيع الفوط لا يحتاج إلى كل ذلك.

نظر خلدون إليها نظرة ازدراء، ثم قال باتجاه معاكس تماما كمن لم يعجبه ذكاء زوجته: - أنا ذاهب للزور إلى عائلتي لسببين: كي أنسى كيف سرق أولاد الديوث هاتفي، وحتى أتخلّص من حالة الملل وفلسفة الزبائن، ولأرتاح قليلاً من...

ثم مطّ طرف حاجبه إلى ابنه "هاني" الذي طوى يديه خلف مقعد أبيه وأخذ يستمتع لحديثهما، ثم ما كان منه إلا أن سلّ يده وقام بدس اصبعه في أذن أبيه، فانحرف خلدون عن الطريق قليلاً، صاح بعدوانية: - يا ابن الحرام، كدت تقتلنا، لعن الله هذه العادة، لعن الله العاصمة، لعن الله الزور، لعن الله الفوط، لعن الله من سرق هاتفي...

انفجرت أيضاً صباح بوجه يمتزج بالخوف والغضب، مطت يداها لتمسك بهاني الذي تكوّر في زاوية الكرسي، زفر خلدون الهواء من فرجتي مناخيره تلاه شهيق وزفير، قالت له صباح وهي تفرك كتفه بيدها: - نعم، شهيق، زفير، زفير، شهيق، شهيق، نعم يوغا، يوغا يا عزيزي.

- ذكّريني حين نعود للعاصمة أن نبدل الطبيب. ذاك الطبيب الطنط يكذب، إنه لا يعي من الطب النفسي شيئا.

ثم ألقى نظرة إلى ابنه من المرآة، وكان يدسّ اصبعه في ثقب مقود الباب المخلوع، ثم صاح: - اترك البا-ا-ا-ا-ا-ا-اب

- معك حق علينا تغيير الطبيب (قالت صباح بيأس)، إنه لا يتحسن، ولا يستطيع التحكم بإصبعه، إنه يدسه في كل مكان، ماذا لو غاب عن ناظرنا وقام بدس إصبعه في إبريز الكهرباء كما حدث آخر مرة؟

- قلت لكِ دعينا نتخلّص من إصبعه وننتهي من القصة، إنه يسبب لنا المشاكل، الكثير من المشاكل بإصبعه اللعين هذا، بتره في مصلحته أيضاً، في حال قمنا بذلك سيتخلص من الخدمة العسكرية حين يكبر، فكري قليلاً. - إنه وحيدنا.

- أعدك يا حبيبتي أني سأضغط على نفسي، وأحاول أن.... فهمتي؟ أن أكون ذكراً جيداً فتنجبي أخاً له، لكن وافقي على قطع إصبعه، لم أعد أحتمل.

- لا أعتقد أنك تتحدث بعقلانية، كيف نقطع أصبع ولدنا؟

- لدي فكرة، دعينا نضع أمامه ماكينة اللحمة ونقوم بتشغيلها ونخرج لنشرب كأس عصير ونصفر لحناً لأغنية "الحياة حلوة" أو نرقص على أنغام "كان هواك كاذباً".

- تقصد "كان هواك عاصفاً".

- ليس مهما، "على الدلعونة" إن أردت، من ثم نعود ببراءة ونجده قد وضع إصبعه في الماكينة وقد هرسته، نأخذه للطبيب ونعالجه، ونشتري له كأس بوظة مثلج ونعيش في ثبات ونبات، ما أحلانا.

- كم.. أنت.. شرير، هل بحق أنت زوجي اللطيف الرومنسي الذي عشقته وكان يربي غرّة مثل "عبد الحليم حافظ". لا ليس أنت، لست خلدون، إنك وحش. وحتى لو فعلنا، وهذا مستحي-ي-ي-ل، سيبرمج أصبعه، القصة ليست بالإصبع، القصة هنا في رأسه، يحتاج دماغه لترويض ولإعادة برمجة، أتذكر حين ربطنا يديه أخذ يستعمل أصابع رجليه، وحين كبلناهما ببعض أخذ يدس أنفه في كل شيء. آه، أُنظر إليه إنه وحيدنا، أنظر كم هو...

التفتت إلى طفلها، ثم صاحت بهستيرية: - اسحب إصبعك من أنفك- ك-ك-ك.

تمايلت السيارة يمنة ويسرة، قال خلدون بتوتر: - امسكي المقود، امسكي المقود.

- ماذا؟

امسكي المقود بسرعة، دعيني أسند رأسي قبل أن ينفجر.

أمسكت صباح مقود السيارة، حصر خلدون رأسه بيديه كفكي كماشة، ثم تناوب (شهيق... زفير... شهيق... زفير).

هدأ قليلاً، استعاذ من الشيطان، وكمن حلّت عليه سكينة مفاجئة:

- معك حق، إنه طفلنا وعلينا تحمّله بهذا العيب. الانفعال لن يجدي نفعاً.

عاود النظر إليه بالمرآة، ثم وكمن أراد البكاء: - أُنظري إلى فرجتي أنفه، لقد أصبحتا لكثرة ما يدس إصبعه بهما مثل عينا بندقية صيد.

في تلك الأثناء وصلوا مدخل القرية، في الزور كانت والدة خلدون العجوز تصنع الخبز على التنور أمام منزلها الريفي القديم، ووالده يشذّب يد فأسه الخشبية بمنشار. قال خلدون ناصحاً: - ها قد وصلنا، اسمعيني لا أريد أن أكرر كلامي، حماتك خط أحمر، وإن...

- ...أعرف، "إن دفن المسائل القديمة ليس بالأمر السهل، ولا يشعر الجميع بالارتياح حول ذكر تاريخ العائلة أمام الغرباء، حتى لو كانت الزوجة في منزل حماتها". حفظت ذلك بصماً. عليك أن تعلم أنّي أتحمل كل ذلك فقط لأني أحبك.

- يا حنونة...

ركن خلدون السيارة، فتح الصغير "هاني" الباب واندفع مسرعاً نحو جدته التي شهقت بحب لرؤيته، إنّه طفل العائلة المدلل.

ترجلت صباح وخلدون من السيارة يترنحان من الطريق، تبين كم تمتلك صباح جسداً جميلاً وخصراً دقيقاً حيث كانت ترتدي فستاناً زيتونياً طويلا وضيقا، وتلف رأسها بشال أبيض، على عكس خلدون المنتفخ كبالون ويرتدي بنطال بحمالتين.

هَوتْ صباح على يد حماتها تقبّلها، في نفس الوقت الذي أمسك خلدون فيه رأس والدته ليقبّله، صاحت العجوز مستثقلة: - تريدان قتلي، أي محبة كاذبة هذه؟ الحب لا يأتي بالقُبَل، بل هنا بالقلب، ودقّت على صدرها.

غمغم خلدون:- اللهم أعطنا خير هذا اليوم.

- بماذا تبربر؟

- أقول كم حماتي تحبني حتى وصلت على موعد الغداء.

زمّتْ والدته فمها وهي تلقي نظرة ماكرة إلى كنّتها، سارع خلدون متسائلاً: - أين والدي السبع؟

- يعني تتظاهر بأنك لا تراه، هناك ينتظرك حتى تقبّل رأسه بشفتيك المفلطحتين مثل شفتي قردة وُلدت من جديد.

خرخر خلدون بضحكة ميتة، ثم صاح إلى أبيه بلهجة هارب: - أبي، تعال يا حبيبي وخلصني من زوجتك، إن عينها حبلى عليّ من الغضب.

أشار إليه والده العجوز بأن يأتي إليه ويتركها، كان والده هادئاً ولا يُعرف مزحه من جده، همت صباح باللحاق به فزعقت حماتها: - ألا ترين أني أصنع الخبز؟ كِنّة غيرك هجمت على التنور وأكملت خبزه عني...

- طبعاً يا حماتي سأفعل، لكن أردت أن ألقي على عمي التحية.

- فيما بعد، أكملي خبز التنور الآن، أو هاتي، قرّبي عيدان الحطب والجلّة.

غمغمت صباح وهي تكرر نصيحة زوجها: - إنّ دفن المسائل القديمة ليس بالأمر السهل، ولا يشعر الجميع بالارتياح حول ذكر تاريخ العائلة أمام الغرباء، حتى لو كانت الزوجة في منزل حماتها الشريرة. شهيق، زفير، شهييق...

ثم انطلقت بلا رغبة للعمل.

انشغلت العائلة ولم تهدأ، كخلية نحل، وبعد أن انتهت "صباح" من تجهيز الخبز مع حماتها طلبت منها حماتها بتعزيل المنزل وإعداد الغداء، أما خلدون فقد قام بتشذيب الفأس بدلاً من أبيه، وقام بنكش الأشجار حول المنزل، ونقل المياه إلى حوض المزرعة، وتوزيع التبن على المعالف في الزريبة.

وقف خلدون منهكاً والعرق يتفصـــد من جبينه وقد أغرق إبطيه، نظر إلى زوجته التي بات يرفّ أنفها من التعب، ابتسـما لبعض ابتسـامة متورطة، ثم فرقع خلدون بيده وراح يهز خصـــره الثقيل أمامها، وأخذ يدندن ويصـــفّر: (دوم، ترم، دوم ترم ترم. يلا، دوم. ترم دوم دوم ترم ترم).

وما إن انتهيا من كل شيء، حتى سقط الزوجان خائرا القوى.

على بساط العشب الأخضر، تم تجهيز مائدة الطعام في فناء المنزل، لم تكد تلمس مؤخرتي خلدون وصـــباح الكرســي حتى اندفع خوار ثور هائج من الحظيرة، مكبوت، مكتئب وصارخ،

تبادل خلدون وصـــباح نظرات الهلع والخوف وكمن تخاطرا صـــاحا بصوت واحد وجل: - ها-ا-ا-ا-ا-ني

ركض الجميع نحو الحظيرة، كان الثور قد اندفع من الباب يجر خلفه حبله مع سكة كبيرة. حاولت أم خلدون العجوز أن توقفه، وقفت أمامه وراوحت في يديها أمامه لكنه لم يكن ليهدأ، وعلى حين غفلة التف الحبل على ســاقها وجرها خلفه، ازدادت شــراســة الثور، قفز فوق مائدة الطعام، وأكمل طريقه إلى قلب القرية، كانت العجوز لا زالت عالقة، تصـــرخ والجميع خلفها يحاولون اللحاق به وإيقافه وتخليص العجوز منه.

في القرية كانت سيدة تحلب بقرتها بسلام قرب المرج، فنطح الثور البقرة فطارت العجوز إلى الأعلى وتمكنت من الإفلات منه بعد أن تضعضعت بالكامل، وسقطت مغماً علها، هنا أسرع خلدون بلفّ الحبل على أصل إحدى الأشجار فتمكن من إيقافه لكنه لا زال ينط في الهواء، هذه الجلبة أدت لهياج البقرة فرفست سطل الحليب تحتها، فاندلق على ثوب السيدة وكسر السطل جسر أنفها.

حدث عراك حاد بين البقرة والثور، حاول الجميع تخليصهما من بعضهما، لكن ثورتهما أدت لانقطاع حبل الثور من جديد.

تجمع بعض السكان بسرعة حول المكان ومن بينهم كانت سيدة حبلى تراقب ما يجري، ركض نحوها الثور والبقرة، فقفزت في الجدول الموحل لتنجو بحياتها، نط خلفها أحد شبان القرية وسارع لسحبها من الطين بصعوبة، أمسكها من خصرها قبل أن تغرق ورفعها بعزم فحلت تكة سروالها.

أغلق خلدون عيناه، ثم أسرع خلف الثور والبقرة اللذان دخلا وسط القرية. ما هي دقائق حتى علا القرية صوت إطلاق نار. كان مصدر النيران الشاب مجدي، فهو يمتلك بندقية صيد ولا يترك فرصة ليستخدمها في قتل الكلاب الشاردة، لهذا صوّب بندقيته نحو الثور لقتله لما خلفه من فوضى وهلع في القرية وبات من الصعب السيطرة عليه، لكن شاء القدر أن تحيد

إحدى رصاصاته لتصيب كتف "الحاج طالب" من بينه وبين عائلة "مجدي" صراع قديم حول قطعة أرض أسفل الزور.

عاد خلدون هارباً من القرية وخلفه تلعلع أصوات البنادق، وقف بهندام متسخ وحال يرثى لها وراح يجيل بناظريه الفوضى الكبيرة التي عمت القرية، كانت زوجته صباح تواسي السيدة الحبلى المدعوكة بالطين وقد طلقها زوجها حين علم أنها تركت سروالها في الجدول أمام رجال القرية. ثم نقل عيناه إلى الجهة الأخرى حيث كانت السيدة التي كسر أنفها وغرقت ثيابها بالحليب تصرخ وتصيح من الألم، ويحاول أحد أبنائها تنظيف وجهها من الدماء. أما والد خلدون فكان قد أسند والدته على ذراعه محاولاً أن تبقى ثابتة لحين قدوم الطبيب.

التفت خلدون إلى ابنه هاني وسأله بذهول: - ماذا فعلت يا ابن المجنونة؟

هزّ الطفل كتفيه بهدوء: - لا شيء، كل ما في الأمر أني نخشتُ مؤخرة الثور بأصبعي.

الزوجة التي رفضت أن تحلب النجوم

استلقى "عيسى" على ظهره يتوسد يداه إلى جانب زوجته المتوعكة من النزوح، أدارت ظهرها مستلقية ونصف نائمة.

قال بهدوء: - هل هذا كل ما استطعنا حمله معنا! يا لنا من تعيسان.

قالت الزوجة بتعب: - بل هذا كل ما بقي من المنزل.

اعتدل الزوج في جلسته وقد استند على كوع يده، وأخذ يعدد بحسرة ما بقي من أغراض منزله، أربعة صحون، ثلاثة كؤوس شاي من الزجاج وكأس ستانلس ستيل، بيدون مياه ٢٠ ليتر، حصيرة ترك إبريق شاي ساخن بصمته في وسطها، ثلاثة وسائد متسخات انفجرت أطرافهن بالصوف مثل أمعاء جروٍ صغير.

ثم حوّل عيناه للجهة الأخرى خلفه حيث نصف شمعة تستمر بالاحتراق فوق ترابيزة صغيرة خيطت ساقها المكسورة بسلك معدني، وفوقها إلى جانب الشمعة وضع مصحف صغير.

اضـطجع في جلسـته ثم سـحب من تحت اسـفنجته علبة تبغ، لفّ لفافته ثم قام بإشـعالها، وكمن يحدث نفسـه والسـيجارة في فمه: - لعنهم الله.

- حدد بالاسم من هم ليستجيب لك ربك.

- جميعهم... ماذا سأعد وأعد؟ كثرٌ هم الذين كانوا سبب تشريدنا.

تحمست الزوجة للنقاش فاتسع فمها بالحديث:

- ألسـت من كان يقول أنّ الأرض لمن يسـيطر عليها؟ ها؟ لا داعي لتحرق أعصـابك وأنت تفكر بحالك. بعدين ألسـت من طلاب التغيير؟ لقد صدّعت دماغي بالشعارات وعكّرت سماي بالفساد، وكأنك زعيم حزب.

- لم يخبروني أنّ التغيير ومحاربة الفسـاد سـيأتي بشـعر منفوش ولحية مغبرة وقميص باكستاني، لم يذكروا هذا في الكتب.

- لهذا أقول لك منذ سـنوات تعال لنرجع لحضـن الوطن، لكنك لا تسمع.

- لا أريد.

- لماذا يا رجل؟

- أصاب بالقشعريرة وأسخسخ بعدين.

ضحك عيسى، في حين رفعت الزوجة صوتها بغيض: - أريد أن أفهم أنت بأي صف؟ تسبّ هؤلاء، ومن ثم تخرج وتلعن أولئك ويا ليتك استفدت بقرشٍ واحد من الاثنين، وإن قام أحدهم بإلقاء القبض عليك سيحسونك...

أسند الزوج يده لحنكه وهو يفكر بصوابية زوجته، ثم قال غير مكترث:- أين اللوكس؟ هل جلبناه معنا؟

- لا، تغير الموضوع

- بصدق أنا مع أي طرف؟ ولما اكون مع طرف، يعني هل كلا الطرفين المتقاتلين على صواب؟

- أتزعل إن قلت رأيي فيك؟

- أفكر.

- أنت مثل الشو أسمو، عرفته؟ الخاص بالبقرة، ذاك الجزء الواقع تحت الذيل مباشرة، تربيتي لا تسمح لي بذكر اسمه.

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني لا أنت مع الجلد مسلوخ، ولا مع اللحم مطبوخ...

- يلعن ترابيتك.

ضحكت الزوجة:

- الزوجة على تربية زوجها.

- إندفسي نامي.. يلعنك كافرة، سأشتكيك لأبو قتادة

- أبو مين؟

- أبو قتادة، أحد صعاليك هذا البلد الجدد.

أغرقت الزوجة رأسها بين وسادتين:

- لا أريد ذكر اسمهم حتى، أشكر الله أنه أخرجنا من بينهم سالمين.

نقّض الزوج سيجارته في المرمدة، ثم لفّ أخرى وقام بإشعالها، اعتدلت الزوجة في جلستها مرة أخرى حين سمعت طقطقة القداحة: - إنها السيجارة الألف يا رجل، سعر باكيت الدخان بـ ٥٠٠ ليرة، وفّر ثمن الخبز، لا شيء نمتلكه لنبيعه.

- يعني لستِ خائفة على صحتي؟

- إن كانت الحرب لم تقتلك، فلن تقتلك سيجارة حلّ.

سحب على سيجارته: - آخر سيجارة.

- لا تنسى إطفاء الشمعة قبل أن تنام حتى لا تحترق الخيمة، لم يبق سواها يأوينا.

- لك وين اللوكس؟ كأنه نسينا نجيبه معنا؟

- اللوكس؟ أمدك الله بالحياة الرغيدة، لقد أصبح مئة قطعة تحت الردم. اندفس نام كرهتني العيشة.

- لك وين راح كل ها لحب يا مديحة؟

- الحب! آه، هرب من شباك بيتك المخلوع.

- تعالي نامي على يدي، ذراعي لك ممدودة، تعالي لنرى النجوم، أعلم أنك لا زلتِ تحبينني.

مدّ لها ذراعه واستلقيا سوياً يراقبان النجوم من ثقب خيمتهما المهترئة، فكّر الزوج في سرّه، ثم قال لزوجته بحنان: - أتعلمين يا مديحة؟

- لا، لا أعلم.

- لو أنّ الله يرزقني عدد هذه النجوم ماعز ونعاج لكنت صرت غنّاماً، عندها فلينفلق العالم لن أتدخل في شيء، مللت من النزوح.

نظرت إليه الزوجة في مؤخرة عينها:- والتغيير؟

- لقد كرهت هذه الكلمة، حين يذكرها أحد أمامي يتشنج العصب الوركي لديّ.

- لا تشدد على نفسك، لم يعد نافعاً فيك سوى عصبك الوركي لنتسلى به.

- قليلة أدب.

- نيتك هي العاطلة.

- انظري، أُنظري كم نمتلك من الماشـية، واحدة. اثنتان، ثلاثة... عشـرة، لا أريد عدهنّ، كي لا أحسـدهن فلا يحسـد المال إلا صـاحبه. أترين تلك النجمة الكبيرة؟ إنّها كبش المرياع، وذاك كلب حراسـتهنّ. لكن المشـكلة هي أين سأرعى بهنّ؟

- قل من سيحلبهن؟

- وهل تريديني أن أتعهد عمالاً لحلبهنّ؟

- وما الضير؟

- لا ضير، غير أنّي لست خادمة.

- إن كنتِ تحلبين رزق زوجك تصـبحين خادمة؟ عجب عجب أمر نسـاء هذا الجيل. كانت جدتي تحلب مئة نعجة وتكمل نهارها بالحصاد، حتى أنها أنجبت والدي وهي تحصـد وضـعته على قطعة خيش وأكملت حصـادها. هل تريدين أن أحدثك عن "سـهومة"؟ لقد تزوجت من شـاب لديه عشـر بقرات هي من تهتم بهنّ، كم قـالـت لي أمي دعمـا نزوجهـا لـك، لكنني كنـت أحبك.

شـــعرت الزوجة بالاســـتياء لمقارنتها: - خســـئت يا زوجي الحبيب، لا أسمح لك بمقارنتي لا بسهام سهومتك ولا بأي امرأة، تزوجتك حافي ومنتوف وتحملتك على الحلوة والمرة، بل على المرة فقط، وما أن تحك يداك ظهرك حتى تقارنني بأرذل الناس.

- أتقولين أنّ جدتي رذيلة؟

- أنا أقصد حديثك عن سهام الداشرة.

- بل شملتِ بحديثك جدتي.

- ومن هي جدتك حتى لا يخطئ المرء بذكرها يا بعدي؟ يكفي أنّها أنجبت هذه العاهات.

- وتصرخين بوجهي؟

- من يدق الباب يسمع الجواب.

- لعن الله أهلك على التربية.

- بسيطة يا عيسى...

جمعت الزوجة أغراضـــها وذهبت غضـــبانة ومكســـورة الخاطر إلى خيمة أخيها تشـــكيه زوجها، زعق الأخ وهو يذرع خيمته غاضـــباً: - هكذا إذاً، قلت لكِ من البداية أني لا أرتاح له إنه رجل لا يســـوى، هكذا إذاً، يعتقد أنّ

لا رجال خلفك، لكن قسماً لن أسمح له بأن يسرح بماشيته في كرمي ما دام أنفي يشمّ الهواء.

كوكو الطيبة لا تفعلها

منذ القديم حين كان هوميروس يمجد البطل بأسلوب ملحمي رفيع في حكاياته، مروراً بآلام سوفوكليس وبالإنسان الذي ينتظر المخلّص في نبوءات كنعان، وصولاً لبدايات الفكرة النتشوية للإنسان المتفوق، لا أعتقد أنّي سأجد جارةً أكثر تحايلاً من جارتي "هندية" ومن طفلتها الصغيرة.

فقد شاءت الحرب أن تختار لي الحياة في المخيم جارة محتالة تدعى "هندية" تسكن هي وطفلتها في خيمة صغيرة، اتفق والدا الطفلة قبل سبع سنوات على تسميتها "شام"، لقد ولدتها أمها في هذا المخيم، كلما رأيتها في الشارع بشعرها النافر وقدميها الحافيتين، أستغرب لما لم يطلقوا عليها اسم "سوق الحرامية" مثلاً أو "كفر الدود"، أو على الأقل "بيت الجن".

أما "عقلة" وهو صاحب الكشك الوحيد في هذا المخيم، لا يحبذ مناداتها سوى باسم "كورونا". حتى أني حين أتأخر عليه بسداد الدين يصرخ

في الحارة ملء حلقومه بغيض (الله يجعلها كنة إلك)، وقس على ذلك كيف أصبحت "شام" اللطيفة هاجس الجميع.

اليوم وقفت جارتي وابنتها أمام الكشـــك، وقد تندّى أنفها بحبات العرق الصغيرة، ثم زعقت في وجهي بعصبية: - كوكو سرقت شحاطة ابنتي الزنوبة ذات الأصبع يا جار.

أجبتها بأدب: - ما الدليل أنّها كوكو يا جارتي الحنونة؟

صاحت الطفلة "شام" بجانب والدتها بصوت عالي:

- لقد وجدتُ فردة الزنوبة الأخرى قرب منزلك.

صحتُ بحزن: - كوكو لا تسرق، كلبتي لا تفعلها.

ردّت الطفلة: - بل فعلتها...

قلت: - لربما كلب الجيران من فعلها، فالجوع كافر يا ســيدة. إن كان الحاج مدخنة مدير المخيم وخطيب المسجد باتوا يتناوبون في سرقة تبرعات المسجد لا عتب على الكلاب، الجوع طال الجميع، فلا تلومي كلاب الحي.

ردّت جارتي بحدّة: - بل كلبتك من فعلها، وهل سأظلمها يعني؟

كررت الطفلة: - هل سنظلمك يعني؟

قلت معتذراً: - بما أنكِ واثقة، التمسي لها عذراً.

فغر فم جارتي وشهقت بلوعة: - هل أنا كلبة؟

- من قال ذلك؟

- أنتْ قلت...

- متى؟

- الآن قلت أني كلبة.

صاحت الطفلة من جديد: - قلت عن أمي كلبة، أنا سمعتك.

- أنتِ لا تتدخلي يا كورونا، يبدو أنّ الكلام التبس على سمعك يا جارتي وفهمت ما قلته بطريقة خاطئة.

فغرت الجارة من جديد بحرقة: - أنا فاجرة؟

أردفت طفلتها: - أمي فاجرة!

- قلت إنكِ فهمتي ما قلته بطريقة خاطئة.

حوّلتْ جارتي عيناها الدامعتان نحو "عقلة": - هل سمعت ماذا يقول جارك المحترم عني يا عقلة؟ يقول إنّي كلبة وفاجرة، أنا جارته، قل إن كلبتك سرقت الزنوبة التي اشتريتها بستة آلاف ليرة وانتهى الأمر، لكن لا تنكر وتتطاول على من هم أكبر منك سناً وقدراً، تكذّبني وتصدّق كلبة؟

ثم ناحت الجارة نواحاً سخياً: - ألا يكفي أنهم طردوا ابنتي من التدريس، فتأتي كلبتك لتسرق حذاء ابنتي؟

ردعقلة محاولاً بصعوبة ستر ضحكته: - هل طردوا هنادي من المدرسة؟

- طردوها يا حسرتها.

- لماذا؟ إنها شريرة وقاسية ومرعبة، فهل سيجدون من هي أفضل منها لتربي هذا الجيل المتوحش؟

- قل لهم هذا الكلام اللطيف، إن هذا ما يؤلمني...

وفي مواساة انهال عقلة في تأنيبي: - سنقوم بمصالحتكما (وقد أشار إلي بنظرة فيها شيء من قرف) أنت يا وجه الديك، انطلق واشتري حذاء زنوبة لهذه الطفلة البريئة بدل الذي سرقته كلبتك، وفي طريقك قم بشراء طيري دجاج واصنع غداء لجارتك ثمن الإهانة، وأنتِ أيتها الجارة المشؤومة بعد تناولك الغداء في منزل جارك، نكون قد أصلحنا ذات بينكما وكفى الملحدين شر القتال.

ثم نظر إليّ نظرة ماكرة: - وأنا طبعاً لا أحتاج لعزيمة، فأنا من أصحاب البيت.

حين سمعت ذلك أخذته على جنب وقمت في وشوشته: - أنت تعلم أنّ محاسن تعطيني ألفين وخمسمائة ليرة في اليوم في عملها معها في جني

البطاطا، وكيلو الفروج بعد الحصار وصل لأكثر من ثلاثة آلاف ليرة، ارحمني يرحم والديك.

حكّ عقلة أنفه، ثم صاح بصوته العالي: - إن لم تكن تملك المال فمن الممكن أن تذبح لنا ديكين من ديوكك، فنحن نقبل ذلك.

رفعت إصبعي: - إلا ديوكي، فهنّ عائلتي...

- إذاً أنا سأقوم بإقراضك المال وسأصبر على سدادك، وبذلك نكون قد حللنا المشكلة.

ثم نظر إلي: - وأنت لماذا لازلت تحتفظ بهذه الكلبة، الكل في المخيم يشتكي منها، يدها طويلة يا هذا.

كفكفت الجارة دموعها ثم قالت لعقلة وهي تشهق: - ليصنع الدجاجات دعيكة على برغل، وقل له أن يكثر من المرق.

عقلة: اصنعها دعيكة.

شام: نعم، دعيكة أطيب.

جارتي: وليكثر من المرق.

عقلة: وأكثر من المرق.

جارتي: - وأخبره ألا يقوم بعزيمة سلفتي حمده.

عقلة: ولا تقم بعزيمة سلفتها حمدة، فكلاهما مثل الشحم والنّار.

جارتي: وأخبرهُ ألا يكثر من الملح على الطعام، فأنا أعاني من الضغط.

عقلة: هل سمعت أنها مضغوطة؟

شـــام: أريد لون الزنوبة أحمر، وتكون ذات وردة صـــفراء في مقدمتها، وأريد كولا بعد الغداء.

جارتي: بيبسي، أريد بيبسي.

شام: نريد بيبسي.

برقية من ديك منتوف الريش

قبل سنوات كان في مزرعتي الصغيرة ديك بلدي أصيل، حين اشتريته قال لي صاحبه أنّه من أصول بلديّة سامقة في الشرف. بالفعل لم يكن ليكذب، كان له كاريزما قيادية، أبلق، ذو صدرٍ شامخٍ، ويمتلك عُرفاً أحمر متدلّي ويغطي عينه اليمنى، تماماً مثل قبطان في البحرية.

مرّت السنوات أثبت خلالها كم هو مريح، متسلّط، قويّ ومسيّطر، لكن حين بدا عليه الكِبَر ولم تعد ساقاه تقويان على حمله والمُسير في حاجة الدجاجات، قمت بشراء ديك آخر يساعده في القيادة والتلقيح، شابٌ نشيط ويشع حياة.

التفّت حوله الدجاجات بسرعة في تنكّر واضح للعِشرة، حاول الديك الأبلق القديم فرض هيبته لكنه سقط مع أول نِزال، فعاش أيامه الأخيرة مكوّراً على حزنه، مكسور الخاطر وذليلا. لم يرحم أيٌّ منهم عزيز هذا القوم المذلول، فباتت الدجاجات ينقرن رأسه حين

يقترب منهن أو يجاهد ليسرق حبة قمح تركنها خلفهنّ، كما كان الصِبية يركضون خلفه كل يوم، ينتفون ريشه، ويغطسون رأسه بمجرور مياه المخيم ويدهنونه بالطين والزبل. وحين أنقذته من بين أيديهم كان في أسوأ أيامه، وفي عينيه ما يكفي من الحزن والجوع، جوع للهرب من كل هذه المذلّة. بالفعل لم تقوَ روحه الآنفة المسكينة على أكثر من ذلك، لذا وحيداً بعد أيام وجدته وقد مات حزيناً على مجده التليد، وكأنني شعرت بما قاله (الموت ولا المذلّة).

آلمني بصدق رحيله بتلك القسوة، حملته وأنا أفكر بوجع، كيف للجميع من حوله قدرة على كسره بهذا العنف؟ كيف خدشوا كبرياءه وحياءه بضحكة باردة؟ حتى أنّي حين ذهبت لأدفنه تمكنت كلبتي كوكو من الغدر به والتهام جثته والهرب بها. أي نهاية تلك التي تذلّ صاحبها؟ أي موت ومذلة وكسر للقلوب هذا، وأي قهر للديوك ذاك يا إلهي؟

بعد عدة أشهر، فَقَستْ بيوض لدى إحدى دجاجاتي، فكنّ ثمانية صيصان ذكور سرعان ما نمى عليهن الريش وغدون ديوكاً يملئهن الحماسة. وذات نهار تغيبت عن المنزل لأمر ما، وحين عدت كان ينتظرني "أبو أحمد" عامل البطاطا البسيط، قامت أمي - وبسبب تأخري - وفي كرم منقطع بصنع غداء له على عجل، كانت مائدتها على

بساطتها يغلفها المحبّة وتفيح منها رائحة اللحم الطيبة، وما هي دقائق حتى عرفت أن معدة "أبو أحمد" كانت مقبرة لذاك الديك الأهبل.

لكم قاسيت حين رأيته وهو يتناول فخذ ديكي ويلتهمه بنهم، لا أقول بالبخل، بقدر ما هو حزن على غباء الديوك، لو كان ذاك المرحوم يعلم أنّ خيار أمي سيقع بدون تفكير على أكثر الديوك عجزاً، وأن مصيره سيكون أسوأ من سابقه لجزمت أنه سيزهد بما لديه من تعجرف وكِبْر، ولكان طار من الدنيا بأكملها.

الآن أراقب بعين محزونة هذه الديوك الثمانية الشابة من يملأها الغرور بنصرها على ذاك الديك المسكين، ولا أدري أي نهاية موجعة تنتظرها هي الأخرى.

أعزائي ديوك الحي، ممن تقرؤون برقيتي الآن، ديوك كثيرة حولنا تولد كل يوم، وديوك أخرى تسقط كل يوم، ديوك تُفقد وأخرى تهاجر، والدجاجات من حولك لا يفضلنّ سوى القوي الشديد، وحين تسقط ستقع أمامك كل الأقنعة، فتتداعى الوجوه المشوهة ضاحكة، ساخرة وشامتة لسقوطك، وستكمل حياتها بغنى عنك، فلا يغرنّك الشباب والحماسة الزائفة وابتسامات الأصدقاء.

لهـذا انقلوا جميعـا قصـــتي هـذه لأحفـادكم، لمزارعكم ومزارع أصدقائكم، اصرخوا بصوت عالي عبر جميع المنصات، في المخيم في الكشك في التلفزيون، في المجلة، في الحزب والبرلمان ورددوا لديوككم الشـــابة في كل مكان "يا لغباء الديوك"، رددوا ملء أشـــداقكم الرخوة: ما أراد" هنري دو فرنوي" قوله يوماً: "الفخفخة هي فن الحمقى" أيها الحمقى.

يا عمال البطاطا اتحدوا

كان "أبو أحمد" هادئاً ومتزناً طوال معرفتي له، أي منذ أصـــبحت عاملاً في ورشـــته (ورشـــة جني البطاطا)، أربعيني وله عبارة يكررها دوماً حين يتعلق الأمر بالحديث عن رئيسة ورشتنا المستذئبة "محاسن"، حيث يلوي فمه بابتسـامة ماكرة ويقول "لا غيبة لفاسـق"، ثم ينبري في تدنيس تاريخها بلا رحمة. هكذا نحن عمّال البطاطا نضـيّع حسـناتنا في النميمة على الآخرين.

"محاسـن" رئيسـة الورشـة، هي أرملة سـتينية لم تتمكن الحرب من قتلها كما فعلت بزوجها، مع ذلك لا زالت قوية، مترجلة ونزقة حيال تقصـير العمال، حيث تمتلك وجهاً متجهماً يشبه في قساوته وجه جارتي "هندية".

تبدلت الأمور بالنسـبة "لأبو أحمد" حين مرضـت زوجته ولم يقو على متابعة تكاليف علاجها، الأمر الذي دفعه طوال جنيه للبطاطا من أن يغرق في شرود عميق، ما يعني للجميع أنه في حِلّ من تعاسته.

لم يكن الوحيد في تلك التعاسة، جميع العمال الثلاثون هنا ما يكفيهم من التعاسة ليمارسوا عملهم بقرف في نبش الأرض بحثاً عن البطاطا، أستطيع القول إننا هنا في هذا المكان الذي تعج منه رائحة الرطوبة وعرق العمال بيئة تصلح مجتمعة لفيلم على نمط Das Parfum لكن يفضّل أن يكون اسم الفيلم هنا (التعيس والتعيسة والتعيسون) أو (الثلاثون تعيساً). وهو أمر كان يدفع "محاسن" للصراخ المستمر على العمال - المنشغلون بأفكارهم - طوال النهار تحت أشعة الشمس الحارقة. أما "أبو أحمد" لم يحتمل في ذاك اليوم كل تلك القسوة، وعلى غير العادة حمل قضيبا معدنيا واتجه نحوها وفي نيته أن يجأ بطنها به، لولا أن قام العمال بمنعه من الوصول إليها. تفاجئ الجميع مثلي حين ثارت ثائرة هذا الرجل الهادئ المنعزل، وكيف انسحبت رئيسة العمال بهدوء ولم تتفوه بحرف أمام سيل من الكلمات الجارحة، ما حمل العمال لمطالبة صاحب المشروع بتغيير رئيسة الورشة، وبالفعل تم تعيين أبو أحمد رئيساً للورشة بدلاً من "محاسن"، فعادت السيدة المستذئبة تكدح كأي عامل آخر في حفر البطاطا من الأرض بأظافرها الخشبية وإطاعة أوامر رئيسها الجديد.

بعد أيام علق مئزر إحدى العاملات في مرجلة السيارة، فسقط من داخل ثوبها عدة حبات بطاطا كانت قد خبأتها لأولادها بعيداً عن أعين صاحب المشروع. فأهانها صاحب المشروع بلا رحمة، ثم قرر طردها، جميعنا

يعرف حال تلك العاملة البدوية، التي بكت خجلاً وقهراً أمام أعين الجميع المتعاطفة معها.

أثار ذلك أبو أحمد الذي حمل العمال في اليوم التالي للإضـــراب عن العمل لحين تحقيق مطالبهم، وما هي مطالبهم؟ كانت عدم طرد العاملة البدوية، ومنحنا كيلو بطاطا بعد نهاية كل يوم عمل فوق أجرتنا، وبالفعل قبل صاحب المشروع بالمطالب مع اعتذار للعاملة. وجد أبو أحمد أن الفرصة مواتية، فطالب من صاحب المشروع إلغاء التحرش بالعاملات من قبل سائقي الشاحنات الذين ينقلون الانتاج للسوق وذلك بمنعهم دخول المشـــروع لحين انتهاء ورديّة العمل، فتمّ له ذلك بالفعل وبدون جدال.

لقي أبو أحمد محبة واحتراماً كبيراً من الجميع. لكن في أيام قليلة تغير كل شيء، فمع انهيار سعر صرف الليرة وارتفاع كيس السكر خلال الأسبوع الفائت لأكثر من سبعين ألف ليرة وجد الجميع أنفسهم يعملون كالبغال لقاء أجرة ثلاثة آلاف ليرة من الصباح حتى المساء، فطالب العمال من رئيس الورشة التفاوض مع صاحب المشروع لرفع الأجرة، والذي غضب من تزايد مطالب الورشـــة وبات يروي للعمال كيف أن العاطلين عن العمل أكثر من حبات البطاطا في الســـوق وأن العمال في الورشـــات الأخرى تعمل ضـــعف الجهد والوقت الذي تعمل به ورشـــتنا وتنال نفس الأجر وأقلّ من

ذلك أيضـاً. ومع ذلك قرر الجميع الإضـراب وعدم متابعة العمل لحين زيادة يومية العامل إلى خمسة آلاف ليرة بدل الثلاثة آلاف.

وبالفعل، التزم الجميع بالإضـراب لكن ليوم واحد فقط بعد أن قام صـاحب المشـروع بزيادة الأجرة خمسـمائة ليرة فقط، وهدد بطرد الجميع إن لم يعودوا للعمل، فعاد الجميع باسـتثناء أبو أحمد، ليس لأنه لم يرغب في العودة بل لأن صـاحب المشـروع قام بطرده، كما عادت "محاسـن" كرئيسـة للورشـة أصـلب وأكثر قسـوة من ذي قبل وعاد معها المديح والتملق الذي لا ينقطع من قبل العمـال، ومن أقسـى ما سـمعت حين قـالت لهـا العـاملـة البدوية: (من رحتي راح الخير).

الجميع خـان "أبو أحمـد" ومن بينهم أنـا، حين أفكر بـه الآن يراودني قول أحـدهم: "الأمم الغبيـة تفعـل برجـالهـا مـا يفعلـه الأطفـال بلعبهم، هم يكسـرونها ثم يبكون طالبين غيرها". واليوم جميعنا كسـرنا "أبو أحمـد" الطيب، فمنذ خمسـين عاما والبروليتاريا المحلية تطالب بتحسـين مسـتواها المعيشي، ومنذ خمسين عاما أيضاً وحكوماتنا الاشتراكية تكرر نفس الجواب وبلا ملل في النشـرات الحزبية والتقارير الحكومية: (1787، 1826، 1836، 1847، 1857، 1864، 1873، 1882، 1890، 1900، 1907، 1913، 1920، 1929، 2008، 2020).

أم محمد المخاوية

بعد أن رأى ما أدفعه للعلاج عند الأطباء في الآونة الأخيرة قرر صديقي الكافر "أبو مليار"، الوحيد الناجي من الحرب، اصطحابي إلى منزل "أم محمد المخاوية" وهي المعالجة الروحانية الأشهر في الجنوب، التي تسكن في قرية صغيرة شرق المخيم الذي أمكث به منذ سنوات. فهي تمتلك حسب حديثه طريقة روحانية خفيفة في العلاج، لذا لم يكن ليقتنع أن عملي تحت أشعة الشمس الحارقة في جني البطاطا قد أرهقني، لكنه أقنعني بالذهاب وهو يتحدث بطهارة: «إنها طاهرة، نظيفة، ونقية، وتعمل لله، لا تأخذ أجراً ولا تستغل مرضاها كما يفعل الأطباء التقليديون».

بالفعل، وبدفع من والدتي ركبت خلفه على موتوره وانطلقنا إلى القرية بحثاً عن منزلها، على طرف الطريق كان يقف زوجها هزيلاً تلاعبه الريح كعودٍ مجوف، فهو متزوج من ثلاثة نسوة، حين رأيته أيقنت أن قدر

الرجل الجنوبي أن يكون ذكر نحل، ملقح واحد يعمل في ألف خلية، لهذا السبب كان محني الظهر ويعاني من تضرر في سمعه وبصره.

كانت "أم محمد" هي الأخرى بقربه تراقب الطريق بعين كريمة طافية مثل حبة عنب، وأخرى بخيلة.

سألها صديقي: – هل أنتِ أم محمد المخاوية؟

نظرت إليه بعينها اليتيمة نظرة خبيرة، ثم ردت عليه: – بل أم محمد الجنيّة يا ابن الجنيّة.

بعد مقدمة اعتذارات طويلة، أخبرها "أبو مليار" أنه يريد منها أن تكشف طالعي وتشفيني بطرقها الروحانية. لهذا دخلنا منزلها، كان منزلاً متواضعاً، كل شيء به ينم عن ذوق بسيط، جلستُ صامتاً بلا أي حرف حين أخذت تعدد الأشخاص الذين عالجتهم خلال سنوات، وكيف أنها عالجت "أبو دحام" المشلول وخلال أيام نط كالقرد يركض، وتمكنت من فكّ السحر الواقع بحق "رسمية"، فتمكنت بعدها من الزواج من رئيس المجلس المحلي، وكيف قامت بعلاج أبقار "عاطف" بعد أن كنّ يعانين من عُسر الهضم.

وبينما هي تذكر أرشيف إنجازاتها ضحك رفيقي، ثم قال ممازحاً: - إن رفيقي يعاني عسر هضم أيضاً.

نظرت إليه بمؤخرة عينها السـليمة نظرة امتعاض، ثم سـألتني: – بماذا تشعر؟

قلت: – وجع في رأس.

- وأيضا؟

– انتفاخ في البطن.

– وأيضا؟

– دوخة في الرأس.

كركر صديقي: - مبروك حامل.

ثم أعقب ذلك ضاحكاً من خياشيمه.

اقتربت نحوي ولم ترد بحرف على كلام صـديقي وأخذت تردد كلماتها المطلسمة: – يا سيدي البلخي.

اكشف طالع المخفي.

يا عين الجار

فيكي نار

يا عين المرا

عينك مبسمرة

وبعد قرابة ربع ســـاعة من الطلاســـم والتعاويذ التي لم أحفظها، أخذت تتجشـــأ وتتثاءب وتقفل بعطســـة مذهولة من ســـوء طالعي: - عين كبيرة...عين شريرة.

هنا كان رفيقي يتثاءب معها، ثم رفعت يدها وأخذت ترتجف: – أُنظر إلى يدي إنها ترتجف، وظهري أيضاً بات يؤلمني. هل عبرت من عتبة منزلك ولم تسمِ باسم الله؟

– لا أذكر...

– قل الحقيقة، هل صببت ماءاً ساخناً في الحمام مساءاً؟

– لا حمام لدي، فأنا أسكن في خيمة.

– كنت أعرف، عليك حسد وعين وأذى يا ولدي.

قال رفيقي مازحاً: – شيء مفروغ منه، محسود على أراضيه وجواريه.

زعقت السيدة بغضب:

– إن أردتم الاستمرار بالسخرية فاخرجوا من منزلي، أنا أستفيد من خبرة سيدي "البلخي" ولا أبالغ في حديثي.

اعتذرت منها، ثم أكملت: – أستغفر الله، أستغفر الله... أستغفر الله، هناك في حياتك سيدة قصيرة سمينة، وأخرى طويلة سمراء، أنا متأكدة أنك تعرفهما؟

– لا يوجد في حياتي قصيرة سمينة وطويلة سمراء.

– قل الصراحة، ولا تكذب.

قال صديقي: - لربما تقصد جارتك هندية، إنها طويلة سمراء، أو لربما المستذئبة محاسن.

أضافت أم محمد: – عين كبيرة وشريرة من هاتين السيدتين، لهذا سأعيد عليك الرقية.

وحين انتهت، طلبت أن ترتاح، لأن العين الحاسدة وصلت لصدرها وغصّت بها ولم تخرج بعد فأتعبتها، في فترة الراحة قالت: - الكل يأتي لزيارتي، الأطباء يكذبون ويأخذون أموالنا بلا وجه حق، أقلّ كشفيّة دكتور اليوم ثلاثة آلاف ليرة، أما أنا فلا آخذ سوى ألفي ليرة، وحين يشفى المريض يعطيني خمسة آلاف ليرة، ويجلب لي غداء إلى منزلي، هذا ما أوصاني به سيدي البلخي".

ثم نهضت لتجلب البخور.

نظرت إلى رفيقي، اقتربت منه:

– أقســم بأظافر محاســن ووجه هندية البائس أنك ســتدفع ثمن كشفيتها.

– أقســم بعينا زوجتي رانيا الجميلتان لم أكن على علم أنها ســتأخذ أجر، لدي فكرة، نخبرها أننا سنعود غداً ونحاسبها، وحين نخرج من المنزل لا نعود أبداً.

وبالفعل حين عادت أخبرناها بالأمر، لكنها قالت:

– حاسباني أولاً لعلكما لن تأتيان غداً.

هنا أصبنا بالقشعريرة، نظر إليّ صديقي وصاح مذهولا:

– كيف عرفت؟

منحتها ألف ليرة وغادرنا.

طوال الطريق وأنا ألحن كلماته التي قالها لي مدندناً: - إنها طاهرة

نظيفة وطاهرة...

أم محمد، المخاوية

نقية وطاهرة

في طريق العودة سلكنا طريق السد، وهناك وقفنا نتأمل مياه السد المتلاطمة، وبينما كنا نستهزأ بقدرات "أم محمد"، هبط أحد النوارس بضع

خطوات أمامنا، وقف مبتور القدم ثابتاً على ســـاق واحدة، وأخذ ينعق بصوت مزعج وينظر إلى كلينا، ثم حلّق فوقنا بمسافة قريبة، هنا صاح "أبو مليار": – إنه طائر مسخر من سيدي "البلخي".

رانيا الجنيّة

المجاعة والتثاؤب وبيف باف ورأس السنة، أربعة أمور تذكرني اليوم بجارتي القديمة رانيا الجنية وبزوجها اللطيف والرائق على الدوام المدعو "أبو مليار"، (أطلق عليه هذا الاسم في سنوات المجاعة التي حلت به قبل أعوام، أي أنه يمتلك مليار سبب ليجوع وليبقى عاطلاً عن العمل، لا كما اِعتقدت زوجته حين قبلت بالزواج منه أنه يمتلك مليار ليرة).

كان حين يتثاءب يتعرى فمه كاملاً أمامك، إنه الوحيد في هذا العالم الذي يستطيع الجميع فيه معرفة عدد أسنانه السليمة والنخرة لمجرد حركة تثاؤب صغيرة، إنه يمتلك فماً كبيراً له قدرة على ابتلاع دجاجة بريشها، كما له لهاة حلق كبيرة، ولا أكذب إن قلت إنها أكبر من أنفه.

لم يكن ليعجب زوجته ضحك الجميع عليه حين يفعل ذلك، لهذا كانت حين تقول له (أغلق فمك حين تتثاءب وإلا ضحك عليك الشيطان)، يجيبها برواق تام وبجوابه المكرر (بضحك على مية من شكله).

خلال مدة تواجدهما في حيّنا أنجبت رانيا ولدان، في المولود الأول توحّمت على...على ماذا برأيك؟ على الليمون؟ اللوز؟ الفستق الحلبي؟ الفريز؟ أم الأيس كريم؟ كما تفعل أي امرأة عادية في هذا العالم، لا لم تفعل ذلك؟ توحمت على صابون الغار، أنا لا أمزح، وفي المرة الثانية توحمت على رائحة مبيد الحشرات ذو الماركة الشهيرة المعروفة باسم "بيف باف"، "بيف باف" حصراً، وحين جلب لها زوجها علبة مبيد حشري لشركة أخرى زكّت على أسنانها، ثم أحالت المنزل إلى خرابة فوق رأسه، وحين حاول مقاومتها هرست يده بأسنانها.

يقول المتنورون المتأخرون أن المرأة (نصف الرجل)، ومنذ الألفية الجديدة لا أعلم لما لا يقول أحد منكم كلمة حق للنسوة هنا في الجنوب أنها تقاتل لتؤكد في كل المنصات وبدون علم لتكون (نصف رجل). في حين تزك نسوة الحواكير في الريف (كما رانيا) على أسنانها في نيل حريتها لأنها تعلم أنّ القوة الإجمالية للعضلات الماضغة على جانب واحد من الفك قد تساوي 195 كيلوغراماً، لهذا السبب تعدّه النساء القرويات هنا السلاح الأول والوحيد في الهجوم على ضحاياها لانتزاع حقوقها أكثر من الدبلوماسية النسوية المتبعة في المدينة.

أما الذكور من أعجزتهم الحرب ولم يعد لهم قدرة على القتال فباتوا يؤمنون بعلاج وحيد وبحقيقة واحدة ومطلقة، وهي أنّه بالإمكان أن يفقد

الرجل 150 سعرة حرارية في الساعة إذا ضرب رأسه بالحائط، لكن مع كل ويلات "أبو مليار" استبدل تلك القاعدة وعاد لأسلوبه القديم وبدل ذلك قام بإفراغ سعراته الحرارية بضرب رأسه بحائط جبين رانيا النافر فأغمي عليها، وفي المشفى نذر فوق رأسها أنه سيشتري لها عشر علب بيف باف وسيسمح لها بقراءة الفنجان لنسوة الحي إن خرجت سالمة من هذا العارض.

قراءة الفنجان هي موهبة أخرى تضاف إلى مواهب رانيا، بعد تلك الحادثة أذنت الظروف لعودة رانيا لكسب المال، زوج راضي ومطواع ونسوة جائعات لمعرفة مستقبلهن ومستقبل أزواجهن، والأهم صديقة ذكية ومرحة مثل "افتكار" تخبرها بأسرار كل النسوة في الحي. فماذا ترغب مشعوذة أكثر من ذلك لنيل الشهرة وكسب المال؟ بالفعل هذا ما حدث حتى بات يطلق عليها لخبرتها في قراءة الطالع باسم (رانيا الجنية).

برغوث أم قرادة

في هذا اليوم كنت شـــاهداً فقط، وغالبا في بلادنا ما يدفع الشـــاهد الثمن. حين دخلت الدكان في الحي الذي بات يخلو كل يوم شـــيئاً فشـــيئاً بســـبب انتشـــار الكورونا، كان "عقلة" صـاحب الدكان منشـغلاً في حديثه مع "أبو هايل"، وهو يجلس على كرسـي خاسـف صـنعه عقلة في وقت سـابق من صـناديق البيض الفارغة، وحين كان يسند كتفه على عصاه بدا لي عجوز يشدّ رأسه بمنديل معقود تحت ذقنه، تماماً مثل "أم بانكراتوف" في إحدى روايات "أوســـتروفســـكي". وكأنهما يكملان حديثاً غاب عني قســـم منه، رفعت ذروتي جزمتي ووقفت أتابع حديثهما، قال "عقلة" محتدّاً في وجه "أبو هايل":

- مع احترامي لثقافتك وســـنّك، إنه يزحف كالقُرادة لا كما تقول، إنه هكذا بحجم القرادة وله شناكل وليس أرجل.

ثم كمش أصابعه مقدّراً حجمه، فقاطعه "أبو هايل" مؤكّداً وجهة نظره:

- بل إنه بحجم البرغوث ويفط كالبرغوث من هنا لهناك، أتعتقد أنّ المسافة بيني وبينك ستحجزه؟ أنا رأيته، أقسم أني رأيته على طاولة النقطة الطبية في المخيم، ولم أخبر الممرض بذلك، خفت أن أسيء لسمعة محلّه إن عرف الناس أني رأيته عنده.

احتدّ النقاش مرة أخرى، أنا أعرف هؤلاء النازحون منذ أكثر من ست سنوات، أعرفهم أكثر منك عزيزي القارئ، إنهم مثل نهر الفولغا، (كما يصفه مكسيم غوركي) كلما أوغل في البحر انفسح وهدرت مياهه. لهذا كلما غاص شخصان هنا في النقاش انحدرا بقسوة في الكلام.

- أستاذ "جوهر"، أنت عاطل وتتابع التلفاز أكثر من كلينا، أليس هو بحجم القُرادة ويدبي ببطء، أم أنه يفط مثل البرغوث؟ جاوب بقدر ذمّتك.

وجه "عقلة" حديثه نحوي، فصوّبت كلماته قائلاً: - تقصد (عاطل عن العمل).

- ليكن...نريد حكمك

كنت أرغب أن أسألهما عن ماذا يتحدثان، حين دخل شاب الدكان وهو يعطس بتوالي وقد تورّم أنفه المُحمر، فصاح "عقلة": - اثبت في مكانك

ردّ الشاب ضاحكاً: - لا تخف، إنها حساسية الربيع. ما هو الذي يفط كالبرغوث ويدبي كالقرادة؟

أجابه "أبو هايل": - الكالوريا.

صـوّب عقلة حديثه: - يقصـد كورونا ويدّعي أنه يفط مثل البرغوث، أنت ما رأيك؟

- لعن الله شرفه، سمعت أن قدّه هالقدّ.

ثم كمش الشاب أصابعه مقدراً حجمه بحجم حبة خوخ، ثم أكمل وصفه: - وله شعر نافر مثل شعر زوجة أبي، شكله مخيف لعنه الله.

سأله "أبو هايل" بتسخيف: - وأين رأيته حضرتك؟

- على التلفزيون، وكان لونه أقرب للزهاميلي.

في تلك الأثناء، دخل شـيخ القرية بعمامته الطويلة التي تميزه عن غيره من كفار هذا المكان، ألقى السـلام على الجميع فوقف "أبو هايل" احتراماً له، ثم مدّ يده ليصافحه، وضع الشيخ يده على صدره قائلاً: - «لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين».

نظر إليه "أبو هايل" بازدراء ثم جلس مغدور الكرامة وهو يلوي فمه لتصرف الشيخ، ضحكت ملء معاطسي لفعله، وحين بدا على الشيخ الاستغراب وهممت في مغادرة الجميع للمنزل، توقفت سيارة طوزوطو أمام الدكان، هبط من السيارة جاري كما في أفلام جيمس بوند، يحمل حقيبة في يده وله عينان حادتان كعينا صقر، لكنه على خلاف بوند كان يحك بانتظام بشاربيه النافران.

ألقى من بعيد التحية أثناء جلوسنا أمام الدكان، ثم قال لنا في لهجة حزينة:

- أخبروا الشلّة أننا أوقفنا دوري الطرنيب حتى الثاني من نيسان تماشياً مع قرارات الحكومة.

ردّ عليه عقلة بامتعاض شديد: - لقد جاء في الخبر أن منظمة الصحة العالمية صنّفت سوريا في مؤشر الأمان العالمي إلى المركز الأول كأكثر بلد آمن في العالم من حيث تجنب الإصابة بفايروس كورونا، لما العَجَلة في إيقاف الدوري؟

- ومن قال ذلك؟

- الحكومة.

- سلم لي على الحكومة.

ركب البطل سيارته وغادر دون أن يلقي بالاً لحديثه، حينها تسللت هارباً من المكان وأنا أضحك، استوقفتني أمي أمام الخيمة، اعتقدت أنها ستسألني عن سبب ضحكي لكنها سألتني بلطف: - على التلفزيون يطلبون من الجميع شراء الحجر الصحي، اشتري لنا حجراً كي لا نصاب بالكورونا.

الحاج مدخنة

في الفيلم الشـــهير "الدمى الأكثر طلباً" (Muppets Most Wanted) وفي مشهد مؤثر (بالنسبة لي على الأقل) يقف "كونستانتين" الضفدع الأكثر خطورة في العالم الهارب من أحد سجون سيبيريا ليقول بصوت شرير (ليس من الســهل أن تكون شــريراً)، لتدوي من فمه بعد ذلك ضـحكة شــريرة ومقرقعة، ثم يمضي بعدها ليمارس شرّه بشكل طبيعي في انتحال شخصية الضفدع الطيب كيرميت.

وفي بلادنا وفي كل حي أو قرية أو مدينة، ليس من الصــعوبة أن يكون المرء شــريراً، فالأمر يحتاج لبعض النباهة فقط، وأعتقد لو أن ديكارت لا زال حيّاً ورأى "الحاج مدخنة" لقال إن الشّــر لا العقل هو القســمة الأكثر عدلاً بين البشر.

"مدخنة" هو كونســتانتين الحي الذي أعيش فيه، جميع الســكان هنا يعرفونه بهذا الاســم، بدوي مهترئ فوق الســتين، متمرد ويرتدي على

الدوام بشـــته القديم فوق شـــماخ تهدل عن رأســـه، إذ يحبذ في كاريزما خاصة به ترك طرفي شماخه حران للهواء، له روح رائقة وساحرة ولسان يقطر عسلاً حين يجلس معك للحديث في مصلحة، لذا فلا يغرنك حنكيه المنطبقان على الدوام وعيناه الصـــفراوان الغائرتان مثل فلتر ســـيجارة مطوي في مرمدة. وتحت منهما نبت شـــاربان صـــدآن، كثان، أشـــعثان، أغبران، طويلان، باهتان، بشعان، متسربلان.. يووه، إنهما يمتلكان الكثير من التفاصيل، المهم أنهما تسللا إلى فمه دون أن يشعر بمضايقتهما أثناء كرعه اللبن.

ســألت ذات مرة أحد ضحاياه سـبب تسـميته مدخنة، وأعتقد أنّي ســـألت الضـحية الخبير، فأجابني وقد انفجر كالبارود ودون أن يهدأ: (لأن خراطيم أنفه اللعينة معدة لتصـــريف دخان ســـيجارته العادمة، لا لتهوية رئتيه من ثنائي أكسيد الكربون كما أي إنسان طبيعي. إنه جزار، اجلس معه لربع ساعة فقط وضع أمامه منفضة سجائر، ستعرف كيف يكدس فلتراً وراء آخر في ثواني، إنّ أنفه المليء بالشعر لا يهدأ من نفث الدخان، حين أرى هذا الرجل بتُ أصاب بدوار دهليزي).

ثم أعقب حديثه بكلمات قذعة، فالفم لدى ســكان بلدتي اختراع قديم، يتصل بخرطوم طويل إلى المؤخرة لهذا السبب تجده يفيخ كراهة كلما تعلق الأمر بحرية الرأي.

ذاع صيت الحاج مدخنة في البلدة بعد العام 2002، بعد انهيار سد في المدينة (ن) شمال البلاد. حين علم بالخبر حمل خيمته وغادر منزله في الجنوب إلى مكان الحادث، فالتنقل من مكان لآخر وانتهاز الفرص هو عدة النصب والاحتيال بالنسبة له.

وعليه، هناك نصب خيمته وراح ينوح وقد لطّخ وجهه ورأسه بالطين أمام الوفد الحكومي ووسائل الإعلام التي زارت وغطت الحدث.

أجرت الإذاعة الرسمية عدة لقاءات معه فادعى باكياً أنّ مياه السد أخذت أولاده وزوجته ونعاجه، وما هي إلا ساعات حتى تناقلت قصته وسائل الإعلام وصار أيقونة البلاد وخطيئة الحكومة. وفي اليوم التالي حملت الأخبار عنوانها العريض: "منكوب يغطي وجهه بالطين لحين أن تعوضه الحكومة بخسارته".

في حين أن لا أحد يعلم أنه فعل ذلك كي لا يعرفه الناس إذا ما نظف وجهه من الوحل والطين، ومع ذلك عوضته الحكومة قبل أن تعلم باحتياله، وحتى إن عرفت، إنه أذكى من أن يقع في شباكها.

بعد تلك الحادثة باتت أفكاره مكشوفة وعارية أمام الجميع فسارع لتغيير نهجه، لأنه وعى حينها "أن أي مصلحة يمضي من عمرها ثلاث سنوات ولا يتغير حال صاحبها للأفضل فليستبدلها بأخرى". ومن هذه الحكمة أدرك مدخنة أسرار السعادة وعدم العوز.

الحديث عن هذا الرجل قد يطول ولا يقصـر، لكن أودّ ذكر حادثة واحدة فقط كنت شـاهداً عليها، قبل مدة قمت مع أحد جيراني بزيارته وذلك لتخليص مصلحة عالقة بينهما، إذ قام هذا الصديق بإيداع عجل بلدي لدى مدخنة وفق اتفاق مسبق بينهما، وقد قضى الاتفاق أن يشتري جاري العجل من حرّ ماله، وأن يقوم مدخنة بالاهتمام به ورعيه لحين أن يكبر وبعدها يقوم الاثنان باستعماله في التلقيح لقاء المال أو يتم بيعه وفق ما يرتضيانه.

طوال الطريق كان جاري الذي يقود سيارته الطوزوطو يضع موسيقى ريفية، ويغني لمطرب شعبي في الحي أغنيته المحبوبة بلكنة بدوية ريفية محدّثة.

ولأتحرر من صوته الرخيم سألته إن كان يعرف العنوان، فقال وهو يتراقص على أنغام أغنيته:

- لقد أعطاني مدخنة عنوانه الجديد، قال لي حين تبلغ التقاطع، سرّ مئتي متر، ستجد دكاناً صغيرة قام صاحبها بفك فمه وربط مكانه بمذياع، حين تراه ستعرفه من فورك فلا تسأله لأنك إن فعلت لن يتركك حتى يسرد لك كيف حبلت جدته بوالده، لذا ضعه هو ودكانه خلفك، بعدها سرْ عشرين متر، ستجد عجوزا أدردا يجلس على كسرة طوب، ستجده على جانب الطريق الأيمن وينظر إلى الشرق، تقع خيمة مدخنة في المكان الذي ينظر إليه ذلك العجوز.

من كلماته تلك عرفت أنه سيكون فريسة سهلة لذاك البندوق.

لكن ليتني لم أسأله، إذ انبرى يتحدث بلا انقطاع عن مهنته في البناء وفي صناعة المداخن. آه، الناس هنا مثل هذا الشرق كل حديث لديهم يولد آخر تماما كأي حرب تلد أخرى: - لقد عملت نجاراً في لبنان لسنوات، وأعرف كيف تُبنى المداخن، اللبنانيون دقيقون في صناعة منازلهم فهم لا يجلبون سوى المعلم الشاطر والفهمان في المصلحة، لهذا كانوا يتهافتون عليّ من كل مكان. فأنا أجيد بناء المداخن أكثر من أي مهندس. سأشرح لك، ينبغي أن تكون المداخن عامودية، وهذه هي الخطوة الأولى، البعض يجعلها تأخذ شكل زاوية وذلك وفق تصميم المنزل، لكن يحبذ أن تكون عامودية ما أمكن لتأمين استمرار تدفق الدخان بسهولة ويسر. فحتى يكون عملك متقناً ينبغي أن يكون ضغط الهواء عند مدخل المدخنة أكبر منه عند المخرج، وذلك حتى يلج الدخان في الدارة ما قبل المدخنة وليجعل الدخان يتحرك في مساره المحدد. كما

لا بد أن يكون ضغط الدخان عند المدخل مساويا لضغط الجو الطبيعي، فإذا كانت المدخنة تقع على بعد ألف وخمسمائة ميليمتر من قمة السقف ينبغي تركيبها على الأقل خمسمئة ميليمتر من أعلى نقطة في السقف، وإن كان الأنبوب يقع ما بين ألف وخمسمائة وثلاثة آلاف ميليمتر من قمة السقف فإن مستواه ينبغي أن يتوافق مع مستوى السطح، أما

عندما تكون المدخنة أعلى من ثلاثة آلاف ميليمتر من الحافة فينبغي تثبيتها أسفل زاوية عشر درجات. يجب أن تعي أمر مهم آخر، يتناسب سحب الهواء طرداً مع جداء مربّع ارتفاع المدخنة وفرق الكثافة بين الجو الخارجي وبين الدخان الساخن. إلا أنّ السَحْب يتناقص بسبب الاحتكاك بجدران المدخنة مما يخفف سرعة انطلاق الدخان عند الفوهة العليا. وفي المداخن ذات الارتفاع البسيط يتأثر السحب بتيارات الهواء عند فوهة المدخنة، وعادةً يجري تحسين خروج الدخان بوضع أغطية توجه ذاتياً مع اتجاه الرياح، أو بوسائل أخرى تختلف من منطقة لأخرى...ها، فهمت؟

لم يقو قلبي على أن أقول له أنّه مريح في الغناء أكثر من البناء.

حين وصلنا استقبلنا مدخنة بكرم واجد، قال الجار وهو مكسور الخاطر: - قال لي البعض أنك ذبحت العجل اليوم وتريد أن تأكله يا شريك.

- كنت أعلم أنّ الأعداء سيفتنون بيننا يا شريكي، على كل حال حماتك تحبك أنت ورفيقك.

فغر الجار بعصبية: - يعني ذبحته كما قيل لي؟

- إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، إن رأيت أحدهم أعلى الجبل وهو يصرخ "أنا ربكم الأعلى" قل لعله يقرأ القرآن، وإن رأيت الخمر يتسايل عن

أشـــداق أحدهم قل "لعل أحدهم رشـــقه على وجهه"، على أي حال أمهلني لحظة من فضلك.

تركنا مدخنة لبرهة، وحين عاد كان يحمل بين يديه رأس عجل أملح، فسأل مدخنة شريكه: - هل هذا هو عجلنا يا شريك؟

حملق الشـــريك في الرأس المقطوعة وهي تقطر دماً: - لا، فعجلنا لا بياض فيه، إنه أسود دامس.

- وهذا العجل؟

- فيه بياض يخالطه سواد.

- دعني أقول بحســـن نيّة أنّ الذي قال لك أني ذبحت عجلنا لربما تشابه عليه الأمر، ولا أريد القول إنه يريد الإيقاع بشراكتنا فلا أريد أن أسيء الظن، على كل حال أنا أسامحه؛ لأنّه منحني شرف تناول الطعام معك أنت وصحبك. وحتى أريح ضميرك لقد نذرت عجلاً لله وها أنا أوفي نذري. إن كنت تريد أن ترى عجلك لتصدقني تفضل إلى الزريبة.

شـــعر الجارُ بالإحراج، فاندفع يقبّل رأس مدخنة معتذراً عن ســـوء ظنه، وبعدها تناولنا الطعام، كان كريماً جداً ولســـانه حلواً كالســـكر في الترحيب بنا.

غادرنا المكان وطوال الطريق وأنا أفكر كيف لهذا الرجل الطيب أن يكون شريراً، أما جاري فطوال الطريق وهو صامت دليل خجله.

مرت عدّة أيام، كنت أجلس أمام المنزل حين صاح عليّ ذاك الجار ملوّحاً بيده لي من شرفة منزله يطلب مني القدوم على وجه السرعة.

في منزله كان في ضيافته شاب في الثلاثين، كانت النار المتقادحة من عينيه قادرة على إشعال بلدة، ما إن جلست حتى صاح جاري في اندهاش: - هل سمعت ما فعله السيد مدخنة؟ لقد خورفنا ذاك المحتال.

ضرب ذاك الشاب يده على الأرض بِغَيض:

- أقسم أنه سيدفع الثمن.

قلت متسائلاً: - هل لكما أن تشرحا لي ماذا فعل؟

ردّ جاري: - سيشرح لك ضيفي، اشرح له ماذا حدث، فهو سيفيدنا كشاهد. لقد ذهب معي إلى مدخنة وكان شاهداً على ما جرى.

- سآخذ حقي بيدي، ولن أنتظر عرف العشائر لتأخذه لي.

- استعذ من إبليس ودعنا نفكر برويّة.

- الكل يعلم أنّ مدخنة راضع فوق البلام ولا أحد يقدر عليه باللين، لن نحصل على حقنا سوى بجدل عنقه الطرية وزجّه في القبر.

صـــاح جاري بنفاذ صـــبر: - اهدأ بالله عليك، ودعنا نتحدث كلمتين مفيدتين وإلا أنا مضطر للخروج

قال الشاب بهدوء: - طيب، ماذا تريد أن نفعل؟

- احكِ لنا ما جرى، فهذا جاري وصـــديقي (وقد أشـــار بيده لي) سيساعدنا إن لزم الأمر.

استوى الشاب في جلسته: - طيب... تربطني بمدخنة الزفت مصلحة تجارة، لقد نط أمامي في الزريبة قبل شهر حين علم أني اشتريت ثوراً واقترح أن يدخل معي كشـــريك، اقترح أن يقوم هو بتربية الثور والاهتمام به لحين أن يكبر، وحين يصـــير فحلاً نقوم بتشـــغيله في تلقيح الأبقار، أُقســـم أني ســـألقحه حين أراه، قال لي إنها مصـــلحة رائجة اليوم إذ لم يعد الأطباء البيطريون في البلدة قادرون على تلقيح الأبقار اصـــطناعياً إذ لا وجود لقشات تلقيح في السوق بسبب الحصار، قال لي بثقة أننا سنجني أرباحاً كبيرة، طلبت منه أن يعطيني وقتاً للتفكير، الكل في البلدة قالوا لي لا مصلحة لي مع هذا الحربوق لكنني عدت إليه وقبلت، لقد لحس مخي يا رجل، لقد طلب مني أن نوثق تجارتنا في أوراق فيما بيننا لتكون ضماناً لكلينا، لأننا على رأيه في حالة حرب ولربما يموت أحدنا في أي وقت لهذا توثيق تجارتنا على الورق هي ضمان لورثتنا، وحين سمعت ذلك قلت في نفسي كيف سيغدر

بي، إن الجميع يظلمونه. وبالفعل نقلت العجل لمنزله، وكنت أزوره كل يومين ومن ثم كل ثلاثة أيام فأسبوع فشهر، كان التعامل معه مريح.

سكت الشاب وراح يكرع كأس ماءٍ أمامه، انتهز الفرصة جاري للتعقيب، فهو لا يقدر إلا ويتفصحن: - سمعت أنّه داهية، ألم أقل لك في طريق العودة أني لست مرتاح، بالله عليك قل الحق، ألم أقل لك؟

الحق أنه لم يقل، ومع هذا هززت رأسي بالموافقة لكلامه، هنا عاود الشاب لحديثه: - قبل شهر قال لي قريبه أن مدخنة قام بذبح ثوري وبيع نصفه للقصّاب والنصف الآخر قام بطهيه وأكله، ركضت إليه ولي نية أن آكله بأسناني إن كان الكلام صحيحاً..

قاطعه جاري مرة أخرى، نظر إلي نظرة عارف ثم قال: - أرأيت؟ تماماً كما فعلت، كنت أريد وقتها أن أتناوله من غير ملح.

أكمل الشاب: - صحتُ بوجهه ويدي على السكين في خصري؛ لأنّي حلفت أني سأغرزها في صدره إن تبين أنه فعلها وقام بغدري...

قاطعه الجار من جديد وهو ينظر اليّ: - سكين! هه، أنا كنت سأفجر رأسه بمسدسي، ألم تلاحظني يا جاري وأنا كل حين كنت أضع يدي على خاصرتي، لربما اعتقدت أنّي أعاني من الرمل حينها، لا، بل كنت أجس مكان المسدس كل حين، صدقني...

تنرفز الشـــاب لمقاطعاته ثم أكمل: - قام مدخنة بتهدئتي، ثم حلف لي برأس ابنه أن في الأمر ســـوء فهم، هذا قبل أن أعلم أنه لا يمتلك أولاداً من أصله، ثم غاب بضع دقائق وعاد وهو يحمل بين يديه رأس ثور أسود، فسألني هل هذا ثورنا يا شريك، فقلت له إن ثورنا أملح و على جبينه نجمة بيضاء...

قاطعه جاري: - إنّه ثوري الأسود، أقسم أنّه ثوري.

- كرمى لله، امنحني صمتك كي أكمل.

- طيب أكمل...

- الذي يؤلمني أني اعتذرت منه وقبلت عزيمته وتناولت معه الطعام، لقد شاركته في أكل ثوري المسكين.

نظرت إلى كليهما ثم سألتهما بقلق: - هل تقدمتم بشكايته إلى المجلس العشائري؟ فلا حكومة هنا لتجبره على تعويضكما ما خسرتماه.

بالفعل، اتفق المغفلان في النهاية لشـــكايته للمجلس العشـــائري في البلدة وهو أعلى ســـلطة تشـــريعية في البلدة بعد أن ســـيطرت المعارضـــة المســـلحة على أجزاء واســـعة من الجنوب. توقع الجميع عدم امتثال مدخنة للحكم وأنه سيماطل كما العادة، وحين سأله القاضي عن الثوران لم ينكر، إنما قال لقد أكلناهما ســـوياً ســـويا وقمنا بتوزيع ما تبقى على الفقراء، فالحصار لا يرحم. وقد أصرّ على القاضي أن يطلب من شركائه بالقسم

أسيدي مدير المخيم

من خيمة ضـيقة بحجم وحدتي أبلغك سـلامي وخيبتي، سـلامي أنا فقط، وليس أمنكم...

فالمطر المثقل بالغبار والمحمّل بعويل النسـوة والأطفال الصـاعد إلى الله، كل يوم، يتساقط بكفر فوق خيمتي، ويخبرني ويخبر الأصدقاء والأعداء أن أمنكم لا يكفيني، لا يحميني.

مطر يبلل لحيتي كل حين

يزعج زوجتي كل حين

ويؤنسني في وحدتي

وتحت شعارات ووعود أمنكم الرخوة تدلف كرامتي

لا داعي للبكاء أمامك الآن، فحبات المطر دموعي لو تدري.

أعرف أنّ اسـمي غير مهم، وأفكاري بالنسـبة لك متخيلة، ومزاحي مع زوجتي قد لا يضحكك، وأدري أن جراحنا المندملة أمام الشـاشـات لم تؤلم أحد، بقدر ما تغري الجميع جراحاتنا المفتوحة على الوجع والتشرد.

سيدي المدير

هزيلٌ بلا أمل، وبلا حب أنا...

مجعد كممخطة

ممضوغ كجيفة في فم كلب

مقذوف بين شطري وطن

شاحب كورقة صيف

أزرق كالغرغرينة

داكن كالغربة

مذموم كخبز شعير

كافر كرجل دين

مصلوب كعقرب ساعة قديم

دبق كوحل المخيمات

سافل، بل أسفل السافلين

ثلاثيني ولدت قبل عشر سنوات وحرب لو تدري

مؤخرات ملونة كثيرة تحتك بي، مجهزة كيما تركب ظهري وتنهبني

مثقل بالنزوح وبحقائب السفر التي أعجزت ظهري

كتبت قصص كثيرة لأناسٍ رحلوا بلا جنائز

كتبت عن أنواع مختلفة من البشر لم يريدوا سوى البقاء في المؤخرة، لم يكن لهمهم اقتتالكم على النفوذ والخيمة، همهم الوحيد هو الأمن، الأمن الذي لن تقدروا يوماً على فهمه.

سيدي المدير

بلغني منصبكم الجديد، فأردت أن أبلغك اليوم رسالتي لا أكثر، ولربما تكون الأخيرة، أردت أن أخبرك أن أحدهم هنا يتجمد وحسب، وأن في كل خيمة هنا خيبة، صحيح أن الأمر يبدو مبتذلاً لك، لكنه بالنسبة لي ولنا جميعاً هو أمر مصيري، فالسلام.. الأمن...الخيمة وكل ما أشتهيه مع عائلتي هو ليس كسلامكم وأمنكم.

أردت أن أخبرك أن لا طائل لي مما يجري، فهذه ليست حربي، لم تكن يوماً حربي، إنها حرب صبيان خصيان أرادوا أن يجربوا فحولتهم على

المستضعفين مثلي، أما الآن بعد سنوات، يبدو أنني سأبدأ وأحارب حتى يعيش ويحيا ابني.

كان بالإمكان أن أشير بأُصبعي إليكم وأقول بحدة: "لقد خنتم بلادنا"، لكنّني لم أجرؤ يوماً على فعل ذلك، وحين تجرأت وفعلتها عرفت أنّني وصلت متأخراً، وأنّ إنسانيتكم قد ماتت، وليس هناك ما يثيرها سوى القسوة، لا الكلام اللين، لهذا اعذروا قسوتي.

سيدي المدير

بعد عدة سنوات من اللجوء في بلد جار، وقبل أن أضاف إلى طابور النازحين في مخيمك، قالوا لي أن البلاد أصبحت في حال جيدة؛ لأنهم كانوا ينتهزون أيما فرصة لطردنا من بلادهم، فالكل هناك كان يحملق في عيناي على الدوام في صهيونية عربية حقيرة.

فأنا لا أنسى كيف طلب الشرطي يومئذ هويتي ثم جدل شاربيه وقال لي بحدّة: – لاجئ ولص؟

ابتلعت لساني من الخوف، أتعلم ما الخوف، لا أعتقد أنّك خبرته، إنه مرٌّ كالغربة، قاسي كالصخر، قلت له: – لا سيدي أنا عربي سوري ولم أسرق، أنا لا أعض اليد التي تطعمني.

كان الهدوء سائداً، ولم أسمع سوى هرولة قلبي التي كادت تنط أمام وجهه القاسي. تجوّلت عيناه الواسعتان على جميع العمال، ثم صرخ بعدوانية: – هل هناك لاجئون آخرون بينكم؟

كأنه يريد أن يقول "هل هناك لص آخر بينكم".

ردّ عليه مدير ورشتنا وهو مواطن محلي: – الكل مواطنون محليون، هو اللاجئ الوحيد بيننا.

وكأنّ جوابه هو الآخر كان "لا لص سواه بيننا".

بعدها تم تحميلي مثل كبش أجرب في سيارة وقذفي مع عائلتي خارج الحدود، كان الأمر مبتذلاً جداً، صحيح أني قد أموت بأي لحظة هنا في هذا المخيم، لكنني تخلصت من تلك العنصرية.

أنا لم أسرق، أنا لا أسرق سيدي، حلفت لهم مئة يمين أني لم أفعل ذلك، لقد قال لي أحدهم وهو يضربني أثناء التحقيق: - دمرتم بلادكم بأيديكم وتريدون أن تدمروا بلادنا أيضاً، لن تحلموا بذلك

لا أقول إننا ملائكة، وأننا لم نخطئ، جميعنا أخطأنا، لكننا لا نعض اليد التي تطعمنا، وقد حان الوقت لننهض من جديد، آن الأوان لنشدد أيدينا ببعض.

سيدي المدير

قبل شهر من الزمان سقطت خيمة فوق رأس جارتي في المخيم، بعد ليلة عاصفة، حالكة الظلمة وطويلة، وجدتها تسبّح في مسبحتها وهي عالقة في الطين، اسندتها على ذراعي فجرجرت نفسها بتعب نحو خيمتي، شيّعت عيناها نحوي بنظرة منكسرة، عضّت على يدها المتخشبة من العمر جاهشة في البكاء. كأنها تريد أن تقول (من سيغسلنا من هذا الطين؟).

وخلال بقائها في خيمتي حدثتني عن أبنائها، ابناً لاجئاً وآخر غيّبته السجون، فتبلل خداها المتهدلان بالدمع، خطوط متصحرة على جبينها وأخرى حوّلت فمها لقطعة خشب يابسة، مسحت دموعها بقفا يدها، ثم قالت لي أن ابنها عيسى قال لها أن "كندا" لا تبعد كثيراً عن بيتها (تقريباً من بيتنا لمفرق عمتي حسنة بالقرية روحة رجعة أربع مرات، بس ما فيني أجي لأن في بيني وبينك بحر وشريط).

وهي تحدثني، رفع المؤذن صوته بالصلاة، قالت متذكرة: - كانت صلاتي لا تعجب موسى، يضحك بصوت عالٍ حين يسمعني أقرأ الفاتحة التي كان يعلّمني حفظها كل يوم، يقول لي (يمّا في عنق الصاحي خطية السكران)، كنت أقول له أنا امرأة كبيرة، لم أدخل مدرسة، لم أتعلم يوماً حرفاً واحداً، فلن يؤاخذني الله على صلاتي، وعند الله لا هو صاحي ولا أنا سكرانة. كلانا ضعفاء تحت رحمته...

قالت ذلك ثم اندفعت تتلقف الأرض بتعب للوضوء والصلاة، سمعتها تتلو: ▪ مديت عبايتي

- ▪ صليت صلاتي
- ▪ بسم الرحمن الرحيم
- ▪ نستعين
- ▪ مالك يوم الدين
- ▪ نستعين
- ▪ الله أكبر عالظالمين
- ▪ ولا الضالين
- ▪ آمين

أقفلت صلاتها الريفية بتلك الآيات الجميلة، ثم طلبت مني فتح باب الخيمة. لسنوات وهي تبقي باب بيتها مفتوحاً وتذهب لمفرق حسنة وتعود لمنزلها، ومنذ أخذوا ابنها الآخر "موسى" حلفت ألا تغلق باب بيتها إلى أن يعود.

البارحة قهراً سَمِعتْ تلك العجوز أنّ ابنها موسى قد قُتل، ولم تتمكن من رؤيته، ولم تتمكن من معرفة قاتليه، لم تبكِ، لم تصرخْ، لم تنحْ، ولم

تمزّق ثيابها لرحيله، قالت كلمتين فقط «قدّر الله وما شـــاء فعل»، حملت روحها المتعبة وأغلقت باب خيمتها على نفسها.

في الصـباح لم تغسّـل، ولم تكفّن، وإنما سـيقت إلى قبرها كشـهيدة، «من صـــبرت واحتســـبت شـــهيدة، الجنة مأواها بإذن الله» هذا ما ردده النازحون في المخيم حين شيّعوها لمثواها الأخير.

سيدي مدير المخيم

قطعة قماش بأعمدة تعني لي الأمن والسلام

قطعة قماش تعني لي العدالة

خيمتي ممزقة، مثل هذا القلب

لا ترد عني الحر ولا مطر الشتاء

قلتها لك قبلاً

هذه ليست حربي

هذه الحرب هي عقاب على خطايا لم أرتكبها

عقابٌ لجوع من كانوا وقوداً لها.

أطفالي الذين سيأتون

قلبي يتفلّع لأجلهم

قلبي ممزقٌ مفطور

لهذا أقف أمامك الآن راقبًا طريقاً طويلاً

طريق المهاجرين طويل لو تدري

موحش وغريب

أرواح كثيرة زهقت حولي خلال تلك السنوات

أصدقاء كثر كانوا من حولي

ولا زلت أبحث عنهم

أطالب بهم في المحافل مثلكم

وأنا أعلم مثلكم أن لا طائل من كل شيء

فجثثنا العائمة في سماءهم هي قبر مدفون

إنهم ينتعلون السماء كل يوم يا عزيزي

وعيونهم مصلوبة للتراب

ستبقى مصلوبة للتراب

الفهرس

نميمة على طريق المسجد.....	5
مقطوع من شجرة / تحت جسر الرئيس.....	15
مقطوع من شجرة / في سوق المستعمل.....	21
مقطوع من شجرة / الكومديان.....	41
تكنولوجيا معقدة لأناس بسطاء.....	54

الكردوم..... ..	60
"الـــزمـــن الـــجـــمـــيـــل" و "صـــاحـــب السكسوكة".....	69
يـــــــــــوم فـــــــــــي الريف.....	74
الـــزوجـــة الـــتـــي رفضـــت أن تـــحـــلـــب النجوم.....	85
كـــــوكـــــو الـــــطـــــيـــــبـــــة لا تفعلها.....	93
بـــــرقـــــيـــــة مـــــن ديـــــك مـــــنـــــتـــــوف الريش.....	99
يـــــا عـــــمـــــال الـــــبـــــطـــــاطـــــا اتحدوا.....	103
أم مـــــــــــحـــــــــــمـــــــــــد المخاوية.....	107

رانيا الجنيّة.....	114
برغوث أم قرادة؟.....	117
الحاج مدخنة.....	121
أ. سيدي مدير المخيم.....	132
الفهرس.....	142